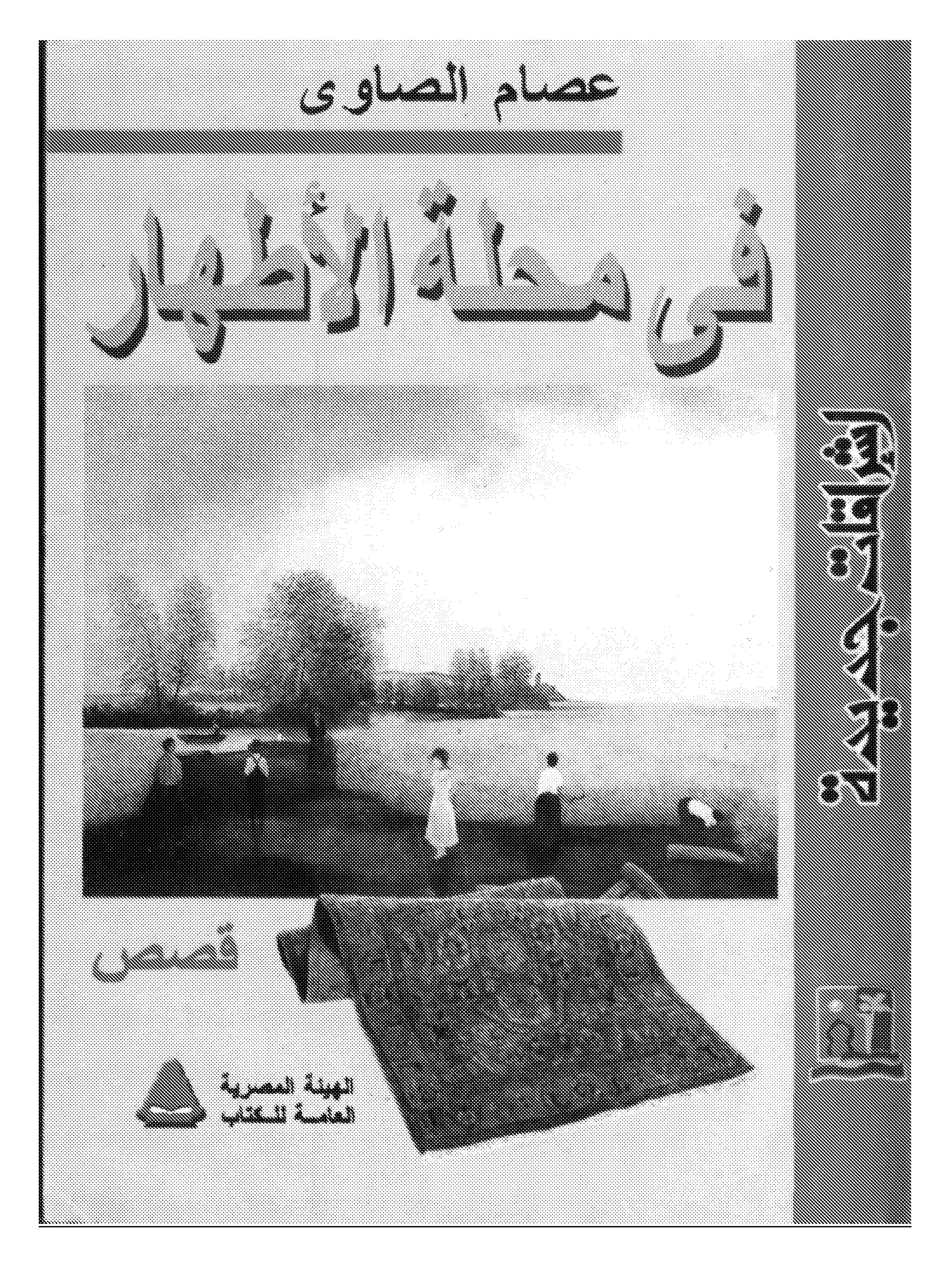

عصام الصاوى
فى محطة الأمطار
إشراقات جديدة
قصص
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

أولى الكلمات

في بعض أوراقى هنا .. سأرافقكم إلى قصرى الأبدى الذى يدوم، فى رحلـــة يتـــوق لهـــا العارفون و يهرب المجرمون. دعونى آخذكم إلى هناك فتكتشفون، حيث كنا و سنكون كما بدأنا عناصر الكون الأبدية.

أيامنا مهما طالت سنوات هى لحظة فى عمر الخلق السرمدى. نظـــن عمرنـــا يطـــول و أعمالنا تنسى، فلا نشبع و نرخى همتنا و نستنزف ترفا و بهجة و سعادة فى دنيا رحبة لا تتأبى كثيرا. نتناسى نعيما و مجدا ورضا لو حل علينا لهانت و فزنا بالجوار، فإن الحنان المنان ينتظر أن يرحمنا، و لا يأبه الكثير منا.

الكاتب

فى محلة الأطهار

استلقت زوجتى على ظهرها بعد أن أطلقت ضحكتها المجلجلة الطويلة ذات التردد الحاد والتى طالما نبهتها أن هذه الضحكة لا بد أن يسمعها الجيـــران ويتساءلون . فى هذه المرة كانت قد وضعت يدها فوق فمها لتكتـــم الضحكة ولكنها انفلتت منها فغاظتنى مرتين لأنـــها لم تكترث لما أقول وسخرت ثم أطلقت ضحكتها التى تثيرنى .

" الظاهر انك كبرت وخرفت وعندك تـــهيؤات وح تجننى معاك ، إزاى عاوز تشوف نفســك وأنت نايم " . قالت جملتها كلها فى نفس واحد وتعبيرات وجهها مع حركات يدها أوحت المعنى الـــذى تقصده . لابد بالفعل أنى خرفت فلم تقل لى أبدا هذه الكلمات من قبل . غضبت منها ودخلـــت الشـــرفة أتشاغل حتى لا أرد عليها أخاف أن تنشب معركتنـــا الأسبوعيـــة ، وحـــتى أضيـــع عليها الفرصـــة أن تنفس طاقتها المحبوسة وإنتابنى الضيق .

كانت البداية فكرة غريبة طرأت فجأة ، ثم وجدت نفسى أفكر فيها دائما ، أصبحت الفكـــرة ملحة تفرض نفسها ليلا ونـــهارا وأبحث جديا أن أفعل شيئا لأنفذهـــا فلن أخسر لا الكثير ولا القليل إن استطعت تنفيذها أو فشلت ، وفى كلتا الحالتين سوف أشبع رغبتى التى إنتابنى وتمكنت منى شـــهورا أتمنى تحقيقها .

ليل الصيف طويل ، والهواء راكد برطوبة عالية وحرارة مرتفعة ، وبرنامج سخيف ملأوا به قنوات التلفزيون ، وحتى الكتب التى اشتريتها قرأتـــها بما فيهـــا صحيفـــة اليوم ، وليس هنـــاك مـــا أفعله سوى الجلوس فى الشرفة أتأمل الحركة فى الشارع تمضى بطيئة كهذه الليلة ، أرى المخلوقـــات والأشياء من خلال السور الحديدى كأنى مسجون فى ليالى الحياة .

فكرت أن أستأجر آلة تصوير وأثبتها فى مواجهة السرير وأضبطها حتى تظهر صورتى كاملة ، ثـــم أديرهـــا قبل أن أنـــام وأتركهـــا تعمل حتى نـــهاية الفيلم ثم أرى ما سجلت فـــى الصـــباح ، أو ربـــما لو ساعدتنى زوجتى وقامت بـــهذه المهمـــة بعد أن أنام فتيسر لى العملية وأرى مـــا أريـــــد ، ولكن بعـــد ضحكتها الساخـــرة التى أطلقتها الليلة فلا أتوقع أن توافـــق على ذلك .ثـــم أن التصـــوير يحتاج لبعض الإضاءة وأنـــا لا يبدأ نومى إلا فى الظلام إذن فلابد أن أبحث عمن يســـاعدنى . المهمـــة صعبة فمن الذى سيقضى الليل فى غرفة نومى وكيف سيتم ذلك؟ فكرت أيضا أن أنفذ كل ما أريد فـــى فندق وبذلك لن تكون هناك مصاعب فى التنفيذ .

عندما نظرت كان الرجـــل راقـــدا علـــى وجهـــه وقـــد أنزاحـــت ملابســـه حتـــى بطنـــه ، فرأيت ساقين سمراوين رفيعتين انتشر الشعر عليهما كأشواك القنفد . انقلب الرجل ورأيت فكه الأسفل وقـــد سقط وبانت أسنانه عليها آثار الشاى والدخان واضحا ، بينما انبعث منه شخير عالى متناغم مع الشهيق والزفيـــر . رأيت ذراعى الرجل وقد ألقاهما وباعد بينهما بعرض السرير كما لو كان مصلوبـــا فأصبح شكله غريبا فضحكت، ولكن لم تلبث الضحكة أن تراجعت وحل مكانـــــها الوجـــوم والحيـــرة . إمتدت يد النائم ووضعها فوق النائمة إلى جواره يتحسسها فى وقاحـــة فانقلبت مقتربـــة تشـــجعه أن يتمادى ولكنه توقف ويبدو أنـــها كانت حركة غير مدروسة فتراجع قبل أن يتورط ولكن كيف ذلك بينما هو نائم . فجأة قام الرجل ودخل الحمام يجر رجليه متساندا على الدولاب و الباب والحوض ، بعـــد أن انتهى لم يعتن أن يطفئ نور الحمام ودخل إلى سريره وارتمى عليه . كانت ملامح الرجـــل مريحـــــة فأحسست برباط خفى يشدنى إليـــه ، وحاولت أن أتذكر أين تقابلنا من قبل ولم أستطع فحيرنى ذلك .

على المكتب الكبير كان نفس الرجل بملامحه الطيبة جالسا وحوله مجموعة تليفونات وأوراق وبعض الموظفيـــن وسكرتيرة جميلة هى جارتى الرائعة ألفت هانم التى طالـــما تمنيتها لنفسى . كـــان الجميع واقفين ينتظرون أن ينتهى مما يمليه الرجل عليهم . بعد أن فرغ من كلماته وطلباته وأوامـــره صرفهـــم واحدا بعد الآخر فى هـــدوء واستبقى السيدة التى نظرت بخبث تعدل بيدها شعرها المنســـاب فوق كتفيها ويدها الأخرى تشد فتحة الفستان لأسفل تظهر جزءاً أكبر من صدرها تثيره تمهيدا أن تطلب منه شيئا . قام الرجل مبتسما واحتضنـــها فى نـــهم يكـــاد يحطـــم عظامها بعد أن اطمـــأن لخـــروج الرجال ، وهى تتمنع فى دلال تتيح له الفرصة أن يعريها أكثر ثم ابتعدت قليلا حتى لا يتمكن منهـــا . فجأة أنفتح الباب ودخل أحدهـــم فشعرت بالأسف والخجل لـــما هـــو فيه متعاطفا معـــه بشدة . كـــان ذلك الجزء الأول من حلم الرجل النائم رأيته كأنما نحلم به معا فى توافقيه غريبة .

رأيت الناس جالسين حول الرجل يطالبون بمالهم فى ذمته من مبالغ كثيرة ، بينما يحـــاول إيجاد الكلمات ليهرب من الموقف الصعب ، ويجاهد لتأجيل الدفع ويصـــممون أن ينهـــوا الموقـــف ولا مهرب أبدا إلا أن يتنازل عن بيته وأشيائـــه ولن يتبقى له شئ ، وسيتركوه بعد ذلـــك بعـــد أن تركتـــه زوجته وأولاده هربا من مطالبات الدائنين كل يوم . أمسك الرجل بالقلم ليوقع بينما دق جـــرس البـــاب وفتح أحدهـــم ودخـــل البوليس فى طلبه ، فاصفر وجهه واختلطت الكلمات وتلاحقت الأنفاس وتلفـــت حوله يبحث عمن يحميه فشعرت بالخوف والشفقة على مصيره ، وانزلقت من عينى دمعه لأجله .

كنت سائرا فى السوق ورأيت الرجل وقد حمل بين يديه أكياسا بـــها مشترياتـــــه ، وكلمـــا توقف عند بائع دفع له مبلغا فيضع له البضاعة فوق كتفيه حتى اختفى خلف كوم الأشياء التى حملها ، والعجيب أنه كان مازال ماشيـــا يترنح تحت ثقلها حتى وصل البيت الذى هو يشبه بيتى ، فلما دخلنـــا وجدت زوجتى راقدة على السرير والى جوارها محصل الكهرباء ذو الشارب الكث العـــريض وبجانبـــه حقيبـــة فيها كل نقـــودى وأشيائى . فلما رآنى نظر إلىّ باستخفاف ومد يده يجذب المرأة نحـــوه فـــى صلف يثيرنى أن أتـــهور فأعاتبه . انحبســـت الكلمات وتخشبت يداى والقدمان فلم أتحرك ولم تنطبـــق جفونى فظلت الصورة ثابتة فى العينين . توقف النفس ، بينما ظل القلب يضخ الدم فى دفعـــات بطيئـــة شحب بعدها وجهى وأحسست بالدوار يتملكنى واصفرت الألوان ثم اسودت ، ووقفت أراقب أحس أنـــى تيس عجوز . صاح محصل الكهرباء ماذا تريد وغمز بعينه فى صفاقة أن أنصرف خارجا ، ولما لم أقدر على الحركة ركلنى بقدمه أسفل بطنى فاشتعلت أحشائى نارا وسقطت على ركبتى ، وشعرت أنـــى قـــد تعطلت ولن أمارس رجولتـــى بعد اليوم .

سحبنى الرجل غاضبا من أجلى وشدنى وسرت أتبعه فى ممر طويل داخل المبنـــى الضـــخم المظلم ثم دخل بى ردهة كبيرة كتبـــت على بابـــها أمر بالامتثال رأيت بـــها أنوارا كثيرة وأعدادا كبيرة من الحاسبات الآلية يجلس إليها رجال لهم وجوه الأطفال ويضعون فوق عيونـــــهم نظـــارات طبيـــة متشابـــهة ، بينما كانت كل الملابس متماثلة، وكذا الأدوات والحركات حتى تخيلت أنى فى مصنع كبيـــر ، إلا أنه لم يكن هناك غير صوتى يسأل أين نحن وماذا نفعل هنـــا ؟ جاءت الإجابـــة مكتوبـــــة فـــوق الشاشة إنـــك الآن فى موقف الحساب وستتسلم بيـــان أعمالك الرديئة بعد لحظة فارتعبت . عندما سكت الصـــوت انزلقت ورقة من فتحة فى الجهـــاز وكتبت كلمة اسحب فوق الشاشة ، ولم أكد أفعـــل حتـــى واصلت الورقة الانزلاق وامتدت عدة أمتار ثم توقفت فجأة . رأيت أسمى فى المنتصف مكتوبا وتحتـــه رأيت جدولا مقسما للأعوام طوليا وبالعرض خانات الذنوب وعلامات للدليل فـــى الأسفل ووجدت أنـــى مارست الكذب طوال سنوات حياتى منذ دخولى المدرسة ولا أزال أفعل ، وقد ارتكبت من كل أصـــناف الرذيلة، ولم يترك الكشف نوعا منها إلا ولى علامات فيه . إلا أنى استنكرت أن يكون ذلك صـــحيحا ، وكلما تعجبت رأيت طاقة نور تضئ ذاكرتى فأتذكر خطيئتى ، ورأيت أنى تورطت كثيرا مـــع الســـيدات وشربت من البيرة والنبيذ والكونياك كل ما كان متاحا لى ، ولم أتوقف إلا بعد أن أمر الطبيب وحذرنى الموت ، ولم يكن توقفى طهرا وترفعا أو تسليمـــا بالعقيدة . فى خانـــة الظلم رأيت كل النـــاس الـــذين

تعاملت معهم وكيف أنى ظلمت كلا منهم ولو بالقليل . وظلت الذنوب والآثام والشرور تتلاحق أمام عينى وفى ذاكرتى حتى كدت أمــوت . حاولت أن أترك الورقة أو أتراجع عن القراءة لأخرج ولم أفلح كأنمــا لصقونى على الأرض أمام الجهاز ، وأدركت أنى هالــك ولا مهرب . كلمات أخرى كتبت فوق الشاشة كسابقتـــها وكان الأمر الأخير اسحب ، وسحبت الورقة لأجد بيان الأعمال المقبولـــة واســــمى فـــى المنتصف والجدول يمتد فارغا حتى آخر الورقة القصيــرة وفى النهاية كتب " ليس أمامك إلا التوبـــة "، غمرنى الشعور بأنى كالكلب المنبوذ فى محلة الأطهار . تنبهت أن الرجل قد إنـــدفع خارجـــا فجريـــت بسرعة لأدركه ، ألــهث ولسانى يتدلى خارج فمى أحاول أن أبلل شفتى بلا جدوى فلسانى جـــاف هـــو الأخر .

وجدت نفسى فى حفرة مظلمة عميقة غير راقد ولا جالس ولا واقف ، بـــل محشـــورا فيهـــا كيفمـــا كان ، كأنى سقطت فيها فانـــهرت فوق بعضى ، والتراب يغطينى ويسد مسامى . سمعت لغطا فوق رأسى وفتحت عينى ورأيت الناس ينظرون لأسفل يستطلعون من الذى فى الحفرة . رأيـــت بـــين الوجوه إبنى وإبنتى وأبى وأمى وإخوتى ولـــم تكن زوجتى بينهم فتعجبت . صحت بـــهم أن إنقذونى . انفض الناس . قال أبى وأمى لقد متنا من سنين ولن نستطيع أن نفعل لك شيئا وانصرفا ومضى أخوتي معهم . وتبقى الأولاد ورأيت أكتافهم ترتفع والأيادى تتباعد عن الأجساد وانصرفت نظراتـــهم بعيـــدا . سمعت الأولاد يهمسون لبعضهم أن ماذا سنفعل لقد اختار نـــهايته ثم انصرفوا غير عـــابئين . ملأنـــى الرعب مما أنا فيه ، وفجأة وجدت وجه الرجل ذو الملامح الأليفة أمامى يكاد يلتصق بوجهى فتطلعـــت إليه ألتمس شيئا يطمئننى . وجدت ملامحه قد تبدلت . لا بل اتضحت . كانت له نفس صـــورتى كـــأنى أنظر فى المرآة الصدئة أرى الوجه القبيح يفـــح بضحكة ساخرة متهكمة كأنما قـــد فـــرح لورطتـــى ويهنئنى عليها شامتا . تقلب الرجل صاحب ملامحى فوق السرير ومادا يده إلى السيدة يضعها عليهـــا محاولا احتضانها ، فأمسكتها وهى نائمة وألقتها بعيدا فخبطت جسدى الذى كـــان نائما إلى جوارها .

***

رائحـــة الشيكولاتـــــة

ساد بيننا هرج شديد وانزعاج، فقد اقتحمنا فجأة رياح الدنيا بعدما كنا قد نسينا متى قدمنا إلى هنا انضممنا إلى الجميع. تجمعنا فى جانب نتلمس الجفاف حيث كان الهواء يندفع محملاً بماء المطر ولا ندرى ماذا سيحدث إذا ما ابتل المكان هذا لم يكن فى الحسبان أبداً. تشاءمنا مما حدث فاستعذنا بالله ورقدنا ندعو صامتين أن تنزاح الغمة وتهدأ الريح، بينما قال أحدهم نذيراً أن السقف كله سينهار بعدما سقطت منها هذه الكتلة وأننا سنصبح جميعاً تحت الأنقاض بعد قليل.

كان الخوف يشملنا أن يمس الماء عظامنا فيسهل للسوس والدود النهش حتى نجف وكنا قد استرحنا ن ذلك منذ أمد طويل. لم يكن يذكرنا بالبلى إلا وافد جديد يدخلونه، فنظل إلى جواره نراقب الخطوات كلها من البداية عندما يبدأ التحلل، فنعد الأيام صابرين حتى تنتهى محنة الزميل، منتظرين رحيل جحافل الحشرات بعيداً والتى لا ندرى كيفا تأتى إلينا أو كيف ترحل. المهم أننا كنا ننتظر أملين الرقاد فى هدوء، فغشى المكان صمت ثقيل كنت نفكر فيه جميعاً كيف تغلق الفتحة التى حدثت. فجأة انفجر الزملاء يتناقشون ويقترحون ويتمنون حلولاً كثيرة كلها ليست فى وسعنا حتى هدتنا الحيرة والتعب بعدما تعودنا الريع العاصف، ثم سقطت فى سبات عميق حتى انتبهت على ضوء الصباح وقد تسرب قوياً من فتحة السقف، فرأيت النور الذى افتقدته وقمت بسرعة محاولاً النظر إلى الخارج أريد أن أتحرر من مرقدى.

لم أكن أعرف أن بهذه السرعة تمر الأيام. أدركت ذلك عندما سمعت بعض الأصوات ميزت منها صوت زوجتى والأولاد. اندفع أحمد إبنى الأكبر يعاين الثقب الكبير، ووقف حيراناً ينظر إلى أسفل محاولة الرؤية بينما هبت نسمة أثارت التراب وقذفت بورقة سقطت فوق وجهى فاقتحمتنى رائحة الشكولاته تبعث منها وتعيد إلى ذاكرتى طعم الحياة فوق الأرض.

قال إبنى محمود أن السقف فوق المكان الى أرقد فيه تماماً، لذا فهو يشعر بالأسف أن الحجارة سقطت فوقى. سمعت نهنهة ونحيبا، كانت إبنتى تبكى في ارتياع أن حدث هذا،

حبيبتي أشفقت علي مما أنا فيه، إنها رقيقة دائماً، ثم صاحبتها زوجتى وهى تبكــي حتــى بدأت أعتقد انه خيل إليهم أنى سأخرج لهم من هذه الفتحة.

قالت زوجتى وهى تبكي إنها ستطلب من أخيها المهندس أن يبعث برجاله لإصـــلاح السقف علي الفور، فإن ذلك لا يرضى أحدا علي الإطلاق، وإنها لن تنتظر حتـــى تســـاهم العائلة كلها في تكاليف الإصلاح. الحارس تدخل متطوعا وقال أن الأمر لا يستحق كل هـــذا العناء وأنه على استعداد أن يتكفل بالعملية مقابل ربعمائة جنيه فقط، فلما اعترضت زوجتى علي المبلغ تحرك الرجل وأحضر صندوقاً من الكرتون وفرده على اتساعه، ثم وضعه فوق الفتحة وعليه بعض الحجارة علي أطرافه، فحجب عن عيونهم الفوهة المفتوحة التى ألقت الرعب في قلوبهم.

عندما انحنى إبنى أحمد ليعاين الفتحة رأيت وجهه ووجدته لم يتغير كما لـــو كنـــت تركته بالأمس فقط، وأحست أنى أريد أحتضنه بقوة. وعلى كل فلم أكن أستطيع أن أنطلـــق خارجا فالسقف عال، وليس هناك ثمة للخروج، وتزايـــدت رغبتـــى أن أرى بـــاقي أولادى وزوجتى. اكتفيت أن أسمع الأصوات تتمتم ببعض الآيات والأدعية طلبا للرحمة ثم صـــمتوا قليلاً وبدأوا يتناقشون حول الأشياء التى يجب عليهم أن يشتروها فى طريق عودتهم. لـــم يدم الموقف أكثر من ربع الساعة وسمعت حفيف أقدامهم عندما تحركوا ثم توقفوا دقيقـــة ليقرأوا الفاتحة قبل أن يسيروا مبتعدين.

كان الكل حولي يغبطوننى لهذه الزيارة. حسدنى أحدهم لأن أســـرتى جـــاءت فـــي الذكري السنوية. الآخرون كانوا يتحسرون أن نسيهم أهلهم والناس وأنه لم يعد أحد يزرهم على الإطلاق، وكان كل ما يطمعون فيه أن يسمعوا بعض الآيات والدعوات التـــى تطلـــب الغفران والرحمة لعلها تتقبل فيخفف عنهم ما هم فيه.

أوحى لى النور الساقط من فتحة السقف بأن هناك مخرجا لما أنـــا فيـــه. لمـــاذا لا أحاول الخروج؟ كانت فكرة مجنونة هبطت فجأة لتقلب كل أفكارى والاتزان ماذا سيحدث لو خرجت لبعض الوقت أرى الدنيا وما يحدث فيها وأزور الأهل والأصـــدقاء لأطمـــئن وأروح عناء الرقاد الطويل. لو فعلتها ستكون سابقة خطيرة يتحدثون عنها جميعاً فأكتسب شـــهرة لم تتح لى من قبل. فكرت فى الأخطار التى قد أتعرض لها، ولم أجد سببا معقولا يجعلنى ألا أحاول المغامرة.

أفكارى حفزتها الرائحة الناعمة الدافئة المنبعثة من الورقة التى استقرت فوق وجهى فعادت ذكريات أيام جميلة كانت فيها رائحة الزهر والعطر والعشب وهواء البحر، وتداعى إلى فكرى ذكريات مضت شاركت فيها زوجتى والأولاد والأقارب والناس وكل منهم ترك أثر قويا أو بسيطا أو بارداً، وراح كل ذلك، وفى النهاية أشتاق إليهم الآن. أريد أن اخرج، وماذا لو ارتكبت إثماً جديداً؟ وماذا لو أنى حاولت عملاً طيباً ؟

همست لجارى أفضي إليه بأحاسيسى ومشاعرى. فوجئت به يمارس نفس تفكيرى ويود هو الآخر أن يفعلها، وارتفع همسنا وصرنا نناقش الفكرة التى ظننت أنى أول من فكر فيها. الكبار عارضوا بشدة وقاطعوا الكلام ثائرين على ما نفكر فيه، أحدهم قال هذا كفر بين وانزوى مغاضبا فى ركن قصي. الباقون وافقوا ورشحونى لأكون في المقدمة فأخرج قبلهم لأستطلع الأمور وأعود فأحكى ، وساعتها سيقررون ما إذا كانوا سيخرجون أو يبقون. الزملاء تحمسوا وصوتوا على الرأى وانتخبونى لأدخل في مغامرة أتوق إليها لم تكن في الحسبان.

بعدما حل الليل سألنى كبيرنا هل أنت مستعد؟ فلما جاوبته نادى عليهم ليحملونى لأعلى فأتشبت بالحافة. كنت أظن أن لى وزنا، ولكن عندما حملونى كان ذلك عليهم سهلا يسيراً، ثم لما رفعونى وجدت نفسى أندفع إلى فوق كأنما أطير، ثم هبطت برفق فى انسياب حتى لامست الأرض وأنا أصدق أنى فعلتها بعد عام كامل وخرجت. الحق أنى كنت مرتعبا من الموقف كأنما أهرب من ليمان. كان خوفى الأكبر أن تزيد ذنوبى عندما تتزايد أيامى فى هذا العالم.

وجدتنى أسير كيفما أتفق مذهولا حتى رأيت أحدهم ينظر تجاهى ولم يفزع، بل لم يأبه على الإطلاق ثم مر من خلالى، نعم اخترقنى كما لو كنت هواء أو غير موجود على الإطلاق وأدركت أن الناس لا يروننى ولا يحسون بى ثم غمرتنى قشعريرة كبيرة عندما اكتشفت أنى خرجت تاركا كل عظامى هناك راقدة إلى جوار الزملاء.

كان سيرى فى الشوارع لذيذا للغاية، فانهم كانوا جميعا لا يدركون أنى جوارهم، فركبت مع بعضهم سيارتهم وساروا حتى ميدان التحرير وكانت عيناى تدوران على كل شئ مشدوها، وكان كل شئ كما كان عليه من عام زاد عليه الزحام والتراب والضجيج. كانت ملامح الجميع متحفزة متوترة من أصوات العربات وفساد الهواء. كان الميدان ربما زاد اتساعه ولكن المبانى القديمة طلوها بالجير فازدادت قبحا عما كانت عليه، ووجدت

سيلا جارفا من السيارات يقودها أطفال وسيدات وقليل من الرجال والجميع لا يهتمــون لا بالناس ولا بإشارات المرور. وسرت بينهم فأنا أعرف طريقي.

كانت السيدة واقفة في المطبخ تعد الطعام، بينما كان هناك رجلا بالغرفة المجــاورة يتصفح مجلة. رأيتها تقترب منه وتدور حوله تغنى وتدلله متلطفة وهو لا يستجيب أبدا، بل كان يبتعد متأففا كأنما يستثقل ظلها وكان يسفه ما تفعله فابتسمت متعجبا. دق جرس الباب فاندفعت المرأة تهندم ملابسها بسرعة بينما توجه الرجل ليفتح الباب فرأيت الأولاد عائدين من المدرسة يرمون بنظرات غير ودودة وربما كانت تحمل الخوف والترقب والريبة معا.

أستحوذ الرجل على أكثر من نصف الطعام تاركا الباقي للسيدة والأولاد، بينما هــم ناظرين إلى شراهته وبدائيته في التهام الطعام كأنما لم يذقه من مدة كبيرة. وبعد أن انتهوا توجه منها كل النقود فأخذها كلها ورمي إليها بعض الجنيهات فوق المنضدة وهى تستحلفه باكية أن يترك النقود فالتزامات البيت والأولاد كثيرة. ولم يعتن الرجل بما تقول، وأراحهــا عنه ليوقف تلامسها الذى تغريه به ولم تؤثر فيه الدموع وانصرف خارجا.

كان الرجل والسيدة والأولاد جالسين يراقبون برامج التليفزيون، ورأيت يد الرجــل تلتف حول كتفها يدسها فى صدورها فى صفاقة ومجون. والسيدة تزيح يــده فــى رجــاء وخوف. الأولاد كانوا صامتين يرمقون ما يحدث مترقبين متعجبين فى خوف ثــم انقلبــوا جريا فى اتجاه حجرتهم يبتعهم بكاء السيدة وهى تسير مسوقة إلى غرفة النــوم والرجــل يمسح شاربة سائرا خلفها كثور هائج.

كانت المرأة أرملتى، والرجل الذى معها زوجها الذى ورث بيتى وأولادى رأيت أنهم نزعوا كل صورى ووضعوا غيرها فوق الحوائط. أيضا لم أسمع لى ذكرا بينهم. كان ذلــك طبيعيا أن يحدث إلا أنى لم أكن سعيدا على الإطلاق، بل تحول احساسي للانقباض والضآلة. ليتنى لم أزرهم، لقد صدمونى وانحلت الأشياء كلها بعدى. الآن ليس لى القدرة على الفعل أبدا ووجدت أيضا أنى لم أكن فعالا فى الزمن السابق ولم أنفذ أبدا ما أردت.

ثروت كان جالسا على مكتبى كأنما هو قيصر، يأمر وينهى ويوقع الأوراق صــائحا فى الجمهور فى صلف ولم يجروء أحدهم أن يعترض فكلهم أصحاب مصــالح يخلفــون أن يعطلها لهم هذا القزم. حضر أيضا عبد المولى وجلس ينادمه أثناء العمــل ذاكــرين كــل الزملاء مقرونين بالمساوئ والفضائح ولم يتركوا أحــدا فــى حالــه. والنــاس حــولهم مستسلمين صابرين يسمعون النميمة ويرون، وحضر فاروق يحمل لهم الشــاى وجلســوا

يتذكرون مواقفى يضحكون عليها فى بلاهة. حظى أن تذكرنى ثــروت فشــاركه البــاقون الحديث وظلوا يتكلمون ويضحكون من أقوالى وأفعالى القديمة لا أملك إلا أن أتعجــب مــن الذين كانوا يقفون احتراما عندما أمر إلى جوارهم، ولم أكن شريرا حتى أفعل شيئا ولم تكن لى القدرة على ذلك.

لم يكن لى أن أرتدى الملابس أو أن آكل، أو أحرك شيئا من مكانه، غير قادر علــى الفعل والاكتساب، لا يسمعنى الناس أو يروننى، وليس هناك سبيل الانتقام أو فعــل الخيــر لأزيد من رصيدى ساعة الحساب. كانت كل النعمة أنى قادر أن أرى من أريــد دون إذن أو حجاب فأقف برهة أتملى حالهم ثم انصرف بعد أن أكتفى بالمشاهدة.

خاب أملى بعد أن درت على بيوت الأحباب والأصدقاء فأنهيت جولتى بسرعة نادما أنى فكرت فى ذلك. توقفت أرقب الناس والحال فازدادت قناعتى بتفاهة ما يفعلونه بعــدما توارى الخجل والحياء بعيدا عن الوجوه. أصابنى هذا بالامتعاض والضــآلة واكتشــفت أن احساسي أنا وحدى هو الذى تضخم داخلي فدفعنى لهذه المغامرة فلم أجد لى مكانــا بــين أحبائى ولم يسعنى بيتى ولا الأصدقاء ونسونى كلهم، وحياتى كنت أنا الوحيد الذى عاشها معتقدا دائما أنى أنا الأكبر والأهم مالكا زمام الأمور وأهما، والآن كل شئ بدونى على مــا يرام.

عدت مسرعا ألعن تلك الورقة التى حملت لى رائحة الحياة، أرتب داخلي الكلمات التى سأقولها للزملاء ليقرروا البقاء بعد تجربتى. كنت سائرا سارحا لا أرى ما حولى من الضيق، أريد أن أجنبهم ألمى الذى أقاسية نادما. دققت النظر على ضوء الفجر الجديد لا اصدق ما رأيت. كانت فتحة السقف مسدودة. لقد أغلقوها بالأسمنت والطوب وقد تماسكت فأصبحت صلبة جامدة ولا سبيل، وجلست إلى الجوار أفكر فى ورطتى الجديدة آملا أن يموت أحدهم فتتاح لى الفرصة لأكون.

* * *

حفرة على ضفاف نـهر

رأيت كما النائم أنى أحفر قبرا عميق يجاور مجرى النهر .وحبات عرق تنزلق ترطب لـــهفتى أن أوارى الجثة قبل أن تفضحنى عيـــون قد ترانى خلسة فتعلن للناس أنى قاتل . ماء النهر كان يجرى كما كل السنوات ، ولكـــن فى هذه اللحظة رأيته ينساب حزينا ، ربـــما لأنى سوف أدفنها بجانبه .

خطر لى أن أعاود الحفر بعيدا عن ضفة النهر حتى لا يرانى هو الآخر ولكن هاجسى أوحى لى أن الجثة عندما تكون إلى جوار النهر فإنـــها سرعان ما تتحلل ويروح الأثر ، أما الدفن هناك فوق الربوة فان ذلك سيجعل اللحم يتقدد وتتصلب العظام قوية فتدوم سنينا ولا يطولـــها السوس والعفن والتلف ، وقد يكشف ذلك فعلتى يوما .

وددت لو كانت لى القدرة أن أحتفظ بـــها أمامى كما هى وكما يفعلون فى متاحف البلاد الباردة ، فأنظر إليها كل يوم أعاتبها عن أيامها معى ، وأتشفى أنى أفقدتـــها القدرة على اللوم بلسان وقح سليط وعينين صفيقتين وذاكرة لا تنسى حقها أبدا ، وتنسى الآخرين دومـــا ، ثم أتشفى مرة ثالثـــة كل يوم عنـــدما أغدو أمامها سعيـــدا أغنى بالمرح والانطلاق . ويبـــدو أنه لن تكون هنـــاك الفرصة للتشفى أبـــدا ، فهى لحظات ثم أغيبها فى الحفرة الرطبة لتقاسى البـــرد والظلام والوحـــدة ووقـــع الأقـــدام وجريان الماء حولـــها وأشياء أخرى .

وقفت لحظة محايدا بينى وبينها أحاسبها على الأيام والليالى ، وعلى طيبة قلبى وسعة صدرى وتسامحى وضعفى فى مواجهتها . أحاسبها على تذمرها وتبرمها وشكايتها ليل نـــهار من كل نعم الله لكل الناس عداها . أحاسبهـــا عندما قللت قدرى أمام أهلها وأهلى والناس والجيران وأولادى ، ثم عندما امتهنت مقدارى أمام نفسى والاحترام . وجدتنى فى مواجهتها عاريا وهى تظهر عوراتى لكل الخلق غير عابئة بالإحساس والكرامة والإدراك ، لا تدرك أنى تحملـــت منها بيتا غير نظيف وملابس مهملة وطعام كريه وابتسامة لزجة لحوح ، وتحملت الكآبة والصلف والرائحة النتنة والأفكار العقيمة وتصرفات خسيسة غبية . لم أتحمل كل ذلك معا فى يوم واحد ، ولكنها وزعت ذلك بالعدل على كل أيام السنة طوال سنواتـــها معى ، فكان لى كل يوم جرعة منفرة تبعدنى عنها وتقربنى من أى ناس .

رأيت عينيها تنظر لـــى راضية عما فعلت بـــها ، وغاظنى ذلك فأقفلتها لـــها بيدى ، ولكنها عاودت فتحها وأشارت بإصبع ضعيفة أن اقترب وأحسست أنـــها تريد أن تـــهمس شيئا قبل أن أدفنهـــا . أرعبنى هذا الخاطر ، إذن لم تفارقهـــا الروح بعد وأنه على أن أقتلها ثانيـــة أو أدفنهـــا حيـــة ، وهكذا فـــإنى يجب أن أضاعـــف ذنبى أمـــام الله

والقانــون ونفسى ، وبدا ذلك كئيبــا فانحططــت جالســا وتوقفــت عــن الحفر كى ألتقط أنفاسى .

رأيتها قوية عفية تغرس الجارف فــى طــين الشــاطئ وتحمــل ملئــه لتقذفــه بقوة خارج الحفرة التى تتسع وتعمق بســرعة ، بينمــا الخــوف يزيــد متراكمــا فــوق قلبى ، أريد أن أصــيح بــــها ألا تفعــل كرامـــة الأيــام كثيــرة مضــت أحبتنـــى فيهــا ووهبتها عمرى وجهدى ومالى والجاه والولد . أريد أن أهتف بــــها لتأخــذ مــا تريــد ، ولن أفتح فمى لمخلوق أبــــدا عمــا كــان . رأيــت عزيــــمتها قويـــــة وســـاعديها أقــوى ونظرتـــها الحارقة ترمقنى بـــها من بعيــد لاتتوقــف عــن العمــل فــى حفــرة ضيقة لتكون قبرى ، ولما التقــت العيــون لــم تــــهبنى بــل ابتســمت فرحـــة أنــــها قاربت أن تنهى مهمتها ، ثم أطبقت شفتيها فرأيتها تضــمها علــى حقــد متجمــد كظــيم .

قالت ساخطة زاعقة ، لقد مررت علىّ أيامى وخذلتنى ، أوهمتنى بحياة وجدتـــها فارغة جافة وملأتـــها علىّ بالمسئولية والأولاد لاأكاد أفيق حتى تخبطنى فوق أم رأسى بإحباط تلو الآخر ، حتى ذاب الحب وبعده الوفاء ثم العشرة وحسن الجوار حتى صرنا أعداء نتربص البعض . وهأنذا قد فزت وأحرزت الضربة القاتلة لأتخلص من هم عمرى وأخلو لنفسى باقى الأيام وإهتزت راقصة فى نوبة جنون ونشوة .

أشارت وهى تنفض يديها فرأيته هناك ، ذلك الفاجر الذى أحبته فى غفلة من رجولتى وساعدها لتفتك بى ، كان جالسا غير بعيد يدخن فى تلذذ وشراهة ، وسعادة فائقة تبدو على سيماه ، لايدرى . فرك يديه يستعد بعد أن أشارت له . لا ... توقفوا ، أنا أوافق على كل ما تطلبون . أتركوا لى روحى فقط ، وخذوا الدنيا كلها فأنا لا أريد الموت هكذا وأدفن إلى جوار النهر بعيدا عن الناس والأهل . أصيح ياغافلا .. بعــد أيام أو شهور سوف تكون إلى جوارى هاهنا ، فكما فعلت بى سوف تفعل بك ، إنك رجل مفقود تماما . أريد أن أنبهـــه ، أن أوقظـــه من غفلـــة قاتلـــة أودت بى فـــلا تخرج الكلمات ولا الصراخ أو الأنـــات .

هاتف قال أجدك حيرانا كئيبا تمنيت أن تقتلها لتستريح فتآمروا عليك ، جميعا وقفتم أمام الحفرة يريد كل منكم أن يقــذف الآخر فيهـــا ليفوز ، وكان القتل حلا ليعيش الباقون بذنب مستمر يشد الـــهم باقى العمر . انتبه ، سيضيع منك ما كان وما سيكون ، ابتعد وانتظر يوما ترى عمل الله فيه ، ومضيت وأنا أشعر بالأسى والخزى معا .

***

حبيبى سمين جدا

بعدما مرت السنوات الخمس الأولى ، كان كل شئ قد راح وانقضى، ووقعت الفأس فى الرأس. كانت بالطبع قد مرت كل مواقف التعارف والخطوبة والزفاف، أيضا أتممنا بجدارة الرسالة مع برامج تنظيم الأسرة وأصبح لدينا أطفال ثلاثة يملأون الدنيا صخبا وضجيجا واحتجاجا.

لما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، كان العقل قد أفاق من كل التحذيرات والوعود والأمانى والتوقعات أيضا. اصبح العقل نشطا واعيا للناس والأحداث ، والظروف والمستجدات التى طرأت خلال السنوات الخمس التالية . ساعتها كان عدد الأولاد قد زاد واحدا جديدا ، وبدا الواقع فى الحجم الطبيعى .

استعذبت المسؤولية وتحملها ، وراقنى أن يعرف الجميع أنى أستطيع تحمل الشدائد ، وأن اصمد فى مواجهه المواقف ، وكذلك قدرتى على مجابهة أصعب المسائل ، حتى صرت مضرب المثل وسعدت بذلك للغاية.وهكذا ظل حبيبى إلى جوارى كل هذه السنوات يروح ويغدو وقد ظهرت عليه إمارات الاطمئنان والدعة والراحة والسكون ، وروقان البال. لذا ظل يسمن منتظما ، فبدت عليه آثار النعمة ليحسده الناس على ما هو فيه.

أصبحنا نراه جالسا يتحسس صدره وذراعيه فخورا بسمنته الغريبة مدعيا أنها تضفى عليه قوة ووقارا ومهابة ، وعليه أن يعتنى بها وينميها ، ويضحك واضحك ويضحك الجميع والأولاد.

ظل حبيبى يسمن ، حتى صار ثقيل الجسم والحركة ثم ثقيل الظل بعد ذلك ، ثم لا يتحرك أبدا حتى لو استنجدنا به نحن الخمسة والجيران والناس ، لا يهتز إلا عندما يريد هو نفسه ذلك. انقلبت الصورة الفكهة إلى العكس ، وزارنا فى البيت الصمت ثم السكون ، وتطور الموقف لتكون تقطيبة الوجه الدائمة هى شعارنا جميعا بعد أن احتلت المشاكل مكانها بيننا ، أثيرها دائما ضجرة تعبة ملولة.

همى الجديد الذى نما خلال السنوات فرض أن أتمم وحدى واجباتنا معا نحو الأولاد والمستقبل والحياة. بعد أن بلدت حركة حبيبى ، بلد فكره أيضا عن الحركة والتصور والتطور ، فطالت ساعات نومه كثيرا ، لتقل ساعات نومى أنا ، أما هو فكانت المعجزة اليومية أن يتحرك ليذهب إلى العمل ويقضى ساعاته هناك ولا اعرف كيف يتم ذلك ، ليعود ويتناول كل الطعام ويستلم السرير وحده هانئا حتى قومته التالية.

تعلق الأولاد الأربعة بى بالطبع ، ثم علق الخامس فى غفلة من الزمان ومنى ومن الأولاد، ومنه شخصيا، حيث لم يكن من المتوقع أن يحدث ذلك على الإطلاق ، ولكنها المشيئة. أصبحنا نحن الستة ننتظر أن يصحو حبيبى ويفيق بعد أن امتلأ البيت بالأولاد وأشيائهم ومتاعبهم ، وبعد أن كبروا واصبحوا يفهمون كل شئ ويسألون دائما. المصيبة أنهم ينتقدون جيدا وقد بدأوا بى والتمسوا العذر لحبيبى السمين النائم دوما ، يبتسم فى براءة ووداعة وهو مستيقظ وعندما يكون نائما أيضا ، كأنما تداعبه الملائكة طوال ساعات نومه وصحيانه كل يوم ، سبعة أيام فى الأسبوع وثلاثمائة وخمس وستين يوما كل عام، فإنه يبتسم باستمرار ليزيد حنقى ومعاناتى واحساسى بفداحة موقفى وحولى الخمسة الأعزاء.

يوما قال حبيبى مستعطفا ، لمن تتركينا ومن سيرعانا بعدك. ذلك القول أعاد الثقة إلى نفسى أنى مازلت مرغوبة أن أبقى. ورغم هذا الإحساس ،فآني كنت قد عاهدت نفسى ألا أتراجع عن طلبى والذى لابد منه بأى ثمن كان.

هو وأولاده تجمعوا حولى يرون ويسمعون كأنما يراقبون الأراجوز يقدم إحدى ألعابه الفكهة ، ولم أشاهد على وجوههم أية تعبيرات ، لا ابتسامة ولا دمعة ولا إجابة عن طلبى أو سؤالى ،وانتهى الموقف لأكتشف أنهم لا يستسيغون كلامى وأفعالى ورغباتى ، وأن كل ما أنا فيه هو مراهقتى الثانية بعد مرورى فوق جسر الأربعين حيث آلام السيدات فى طريق الجدات إلى الأبد.

كنت ومازلت جميلة واعرف ذلك ، وأدرك تأثيرى على الآخرين ، ويسعدنى جدا هذا الإحساس. ويشقينى أن حبيبى هو الوحيد الذى فقدت تأثيرى عليه من زمن طويل ، وأن ذلك غير قابل للإصلاح ، بل أن كل الموقف يمكن أن يعد ضمن الحالات العاطفية المستعصية. ولأنى أفكر كثيرا وعاقلة للغاية ، ولما لم أجد استجابة من الناس والأهل والأولاد. وأيضا لما لم أجد أى بادرة يمكن أن

توحى بالأمل فى التغيير ، كل ذلك دفعنى إلى الاستسلام ، نعم مزيد من الاستسلام.

يوما أرهقتنى كثرة الواجبات والمسؤوليات والحركة وعندما شكوت إليه ابتسم واتسعت ابتسامته ، ربما استغرب أنى اطلب منه نوعا من المشاركة. أثارنى ذلك للغاية ، فأقمت معه معركة. أغلقت علينا بابا وظللت اعدد له ما افعله وما أتحمله وما أصبرعليه بسببه ، وعيرته بثقل وزنه ودمه وبطء حركته وتفكيره وعدم فاعليته فى حياتنا جميعا. أنهيت معركتى قائلة أنه من الأفضل أن اترك البيت تماما حتى يفيق لمسؤليته أو يعفينى منها. اطرق حبيبى ووضع يده فوق يدى ، أحسست به يتصنع الحنان ويربت عليها فى عصبية ثم قام متحاملا أدار وجهه بعيدا ومضى ، وزادنى ذلك توترا.

لما كان صباح ، بعد أن مرت أيام ، وكنت قد نسيت واندمجت. ذلك الصباح الذى كان ، عندما مررنا جميعا أمام غرفته ننادى ونفتعل الحركة ليستيقظ قبل أن يمر الوقت ، وحتى لا يتأخر عن موعده فى العمل الذى يجيد النوم فيه ، عندما كنا ننادى ولا يرد تحية الصباح فإننا كنا ندرك دائما إما أنه مستغرق فى النوم تماما ، أو أنه يسمع الحديث ويكسب الوقت لينام وقتا أطول.
هذا الصباح الذى كان له لونا وطعما غير كل صباح مر قبل ذلك. وجدت الأولاد وقد ارتسم على وجوههم عدم الفهم رغم هتافهم وندائى أن الوقت قد أزف. الصغيرة قفزت وتعدت الكل واندفعت لتقبل أباها قبل أن تخرج إلى المدرسة ، وعندما همت تراجعت وعيناها مشدوهتان مرتعبة.

انصرف الناس، ودخل الأولاد غرفهم ليناموا فأدركت أنى بالفعل وحيدة وافتقدت بشدة حبيبى السمين ، وأيقنت أن وجوده كان يفى بالمطلوب تماما حتى ولو كان بغير حوار.

***

سعيكـــم مرفــــــوض

يدق جرس التليفون فتهتز يدى ويجرح الموسى ذقنى. أتـأفف محاولا الضغط للإيقاف النزيف ، بينما يزداد إلحاح الرنين. أكاد أصمم ألا أرد ، لكن قدمى تحركتا تلقائيا. قالت الحاجة زينب .. " إلحقنى ..عمك عبدالعزيز .. لقيته على الأرض ، الظاهر إنه .." وبكت وهى تنعى الأستاذ. رغم التوقع فإن قلبى انقبض وحطت عليه سحابة حزن ثقيلة ، لم تمر إلا دقائق ارتديت فيها ملابسى وقفزت إلى السيارة مسرعا لأقدم مايمكننى عمله نحو أستاذى الجليل.

يمارس الأستاذ عبدالعزيز هوايته بخفة ومهارة فى حديقة المنزل وربما يقضى وقته كله فيها. قسمها أحواضا يزرع فيها ما يحتاجه المنزل ، وأحاطها بشجيرات الفاكهة وأحب الحديقة كما أحب كتبه وأصبح يحدثنى عنها بوله وإعجاب. ولأن ذاكرته مازالت قوية فهو يداوم على تنشيطها ، فيلقى بعض أبيات الشعر الجاهلى أو الحديث ويغيب منه بعضها ، فيهب إلى كتبه ، ويدخل معى أو مع زوجته فى نقاش حول المعنى أو إعراب الكلمات ليفوز دائما ويفخر أنه لا ينسى.

من سنوات أصبح نزول الحديقة يمثل تحديا للأستاذ ، وزوجته تخاف أن تنزلق قدمه أو يجرح. ويصمم دائما ، حتى كان يوما فيه الهول كله. ليمونة أسفل الشجرة توارت تحت الأوراق عز عليه أن يتركها ، وماعليه سوى نزول عشر درجات على السلم فيحصل عليها. الليمون غالى هذه الأيام وقد يصل ثمن الواحدة إلى ربع جنيه كامل. متناسيا أنه منذ سنوات لم يشتر ليمونة واحدة بل كان يوزع ثمار شجرته على الأصدقاء والجيران. الآن تلك الصفراء تبرق تدعوه أن يروح إليها ، وتحذره زوجته ، وقويا صامدا عنيدا قرر أن يحصل على الليمونة التى كتب لها أن تدخل تاريخ الأستاذ عبدالعزيز.

تنزلق قدم الأستاذ فوق الدرجة الثانية عند نزوله ، ويهوى فوق باقى الدرجات يتدحرج بأعوامه الكثيرة ، ولولا خفة وزنه بعد أن أصبح مؤخرا جلدا فوق العظم لتكسرت يد أو ساق فكان حظه عظيما أن إلتوت قدمه فقط.
لما تمالك بعد أن وجد نفسه فوق سريره وقد زالت الدوخة التى تملكته ، صاح .. الليمونة .. أين هى .. أحضروها ، ولم يهدأ إلا عندما صارت بين يديه فتبسم ارتياحا ، وأعطاها لها لتحفظها فى الثلاجة لوقت قد تحتاجها فيه ، ثم صرخ ثانية أن تضعها الآن قبل أن تتلف ، وتتنهد الست زينب فى حيرة وتعب فهذا مشوار آخر حتى الثلاجة من أجل الليمونة.

الأستاذ عبدالعزيز رأيته شخصية فريدة فى طبيعتها وتكوينها ، دقيق للغاية دائما يتحرى الصواب. لا يطيق الانحراف عما يحدده لنفسه أو للآخرين. اكتشفت أنه قريب لأبى وقد فرقتهما الأيام ، وتجمعا بعد أن رأى والدى توقيعه على درجات الشهر وملحوظته القاسية عن ضعفى الواضح فى مادته. هكذا إلتقيا فى فرحة وحب وسعادة، لأكون تعسا باقى العام فقد صرت هدفه الأول والأخير فلابد أن أحصل على الدرجة النهائية ، وكانت مسألة حياة أو موت ، له ولى أيضا.

فى الفصل عندما يحكى نراه عملاقا يحتوينا بمشاعرنا ووجداننا ، مبهورين بما يقول ، وينتهى قوله بسؤال مفاجئ عن الفعل والفاعل والحال ومعانى الأبيات بطريقته الجميلة التى لا تقبل الخطأ. نفيق من سحر كلماته على مسطرته المشرعة فى الهواء ، يشير بها أو يعاقب على أطراف الأصابع فى ضربة خاطفة مؤلمة على حين غرة لمن شرد. فكنا منتبهين لأى بادرة ، نسمع ونطير هائمين فيما يقول ونجيب على أسئلته وإعراب كلماته ، حتى تأتى نهاية العام وقد نجحنا ومعظمنا قارب الدرجة العظمى. لكن لسوء حظى فقدت درجات ثلاث ، وفزت بقدر كبير من الإزدراء ألقفه إياى وهو يعلن لأبى ولى درجاتى التى لا تليق.

أسمعه يقول أنا مصرى صميم أبا عن جد ربما حتى الجد الثلاثين ، يعتز ويفخر بجدوده الفلاحين الذين قضوا كل حياتهم فوق الأرض يزرعون. ثم يروح يحكى عن جد الحقوه بالسخرة أيام حفر قناة السويس ، وجدودا عاشوا حملة لويس التاسع على مصر ، وآخر مع المقاومة الشعبية ضد الأسطول الإنجليزى لما هاجم الإسكندرية ، ولابد أن له جدا مسيحيا أسلم أثناء الفتح الإسلامى، ومن المؤكد أنه ينحدر من أصل فرعونى ويشير إلى صورة تمثال الملك أمنحوتب ، ويقارن الشبه الواضح لتكوين الجمجمة والأنف والعينين ، ثم انقلب الحديث ضاحكا مع والدى ، تاركا لدى أثرا عميقا ودرسا للإنتماء وحب الوطن.

ثروة الأستاذ عبدالعزيز لم تكن مالا ، فقد استطاع أن يرقى بأولاده حتى أصبحوا بمهن رفيعة ومناصب قلما تجتمع فى أسرة واحدة ونشأوا على حب الأب وإحترامه وتقديره وتقديس العلم والواجب ، وكانوا كأبيهم ذوى صلابة لايهتزون بسهولة.
ولما تزوج ابناؤه صار وحيدا مع زوجته وكانت علاقتهما متميزة ، لا يناديها باسمها مجردا أبدا ويسميها زينب هانم أو الست زينب ، واكتشفت أنه يقدس المرأة جدة وأما وزوجة وابنة وحفيدة يراها ملاكا رقيقا طاهرا مترفعا يتعامل معها باحترام دائم وحب ، فكان ذلك يرفع منزلته ومكانته.

وعاشا يمارسان حياة المسنين ينتظران وصول ابن أو ابنة مع الأحفاد ليملأوا البيت صخبا ، ثم يظلان يرتبان الأشياء وهما يلعنان الصغار باقى اليوم لينتظرا بعد ذلك من يكسر ملل الأيام.

أستاذى حطم حاجز الثمانين بذاكرته القوية وجسده الواهن. لايمل سرد حكايات ماضيه العتيد فى خدمة وزارة المعارف العمومية ، ويذكر قائمة بأسماء طلبته الذين أصبحوا أعلاما فى مجالاتهم ، وعنده دائما ما يحكيه عن حديقته وشجرة الليمون التى يرعاها باهتمام.
كل تلك السنوات ولم يرحم الست زينب من أعمال المنزل ويراها ضرورية حتى تحافظ على قوتها وإتزانها رغم نظارتها السميكة وصحتها التى لم تعد كأيام زمان. وأبتسم عندما يتناوشان أيهما أقوى الآن ، هو عبر الثمانين وهى على أبوابها ، وتدور مبارزة شيقة فى إستعراض للقدرات، وربما فازت بعض المرات إلا أنه لا يطيق أن تحدد له حركته أو مواعيد نومه.

خمس سنوات مرت وليمونة غيرها شدت انتباهه. وكان بلا عكاز وبلا رقابة فوقع فى الحديقة ، ونقلوه إلى المستشفى وعملية أجروها ليضعوا مسمارا من المعدن فى عظام ساقه. بعدها أفاق ليسأل عما حدث وفكره سارح هل حقا مرت ثلاثة أيام ..؟ إذن فقد فسدت الليمونة تحت الشجرة.
زينب هانم أصبحت الآمرة الناهية ، تنتهز فرصة عدم قدرته على الحركة لتملى أوامرها بالأكل والنوم والنظام. ويلومها برقة أنها صارت مستبدة بعد عشرة السنوات ، ولابد أن تتساهل قليلا فإن الملل أحاط من كل جانب ، فلم يعد يقوى علىالمشى أو القراءة ، والتليفزيون ممل وهجره من سنوات. والأهل والأصدقاء سبقوا إلى رحمة الخالق ، والجيران تباعدوا والأولاد بعدوا ، ولم يبق سوى أن ترحمه وتسمح ببعض التجاوزات ، والحاجة زينب تكاد تصرخ ألا يتحرك ، فأصبح يفكر فى الموت جديا هذه المرَة.

فى نهاية ليلة عزاء أبى كان آخر من انصرف وقال قريبا سأسبقك وأنضم لأبيك وسوف تلحق بنا ، ماهى إلا أيام ستنقضى كلمح البصر ، بعدها نتجاور فى الحفرة التى ربما تكون روضة من الجنة إن شاء الله. الموت ذلك الصديق العزيز الذى يأبى أن يحضر خاصة وأن هذا وقته تماما فقد حصد كل دفعتى فى الميلاد والمدرسة والتخرج والمعاش ، ثم تجاوزنى إلى دفعات تالية تاركا إياى. هكذا كان يحدثنى متحسرا أن عزرائيل قد نساه. هل تخاف الموت أيها الصغير؟ سألنى

متعجبا ثم قال أنه ضرورى للحياة ، ويحكى عمن ماتوا أو حضر وفاتهم ، وكلما زرته يروى قصة أحدهم.

عينا زينب هانم التى كانتا جميلتين أصبحت الآن عاجزتين أن تريا ، وعندما حضر حفيد لها واشتكت له ضحك كثيرا لأنها نسيت أنه منذ أكثر من عشر سنوات صار جراحا للعيون ونصحها أن يمارس حبه لها ويزيل غشاوة رقيقة فيعيد لعينيها قوتهما وحيويتهما وجمالهما. قبلت زينب هانم الفكرة مضطرة بعد إلحاح ، وأسلمت باستسلام عينيها لأصابع الحفيد الحنونة ، وأغمضت بعد العملية أسبوعا وارتدت نظارة قاتمة أياما ، ثم راحت تفخر بمهارة الحفيد الرائعة وعلمه الغزير ، وتختال أمام الأستاذ مظهرة أنها ترى الأشياء بوضوح ، وتجذب كتابا من فوق الرف وتقرأ سطورا لتبرهن أن عينيها قد أصبحت شابة من جديد.

الشباب ولى يازينب هانم ، ووهن العظم ، والخطوات ارتجفت ، ولم تعد العصا تكفى للإرتكان عليها ، ويجب أن نقبل ما نحن فيه فقد عشنا سنوات أكثر من كل الذين كانوا حولنا. ويستطرد الأستاذ عبدالعزيز فى الحديث عن الضعف الذى يصاحب الشيخوخة وتقدم العمر ، وأنه يقبل ماهو فيه راض عما قسمه الله ، وأنه لا يشكو سوى الوحدة الطويلة فى الليالى التى لاتنتهى ولا يصنع فيها شيئا سوى التفكير وتدبر خلق الله ، ثم يحتويه الملل بعد ذلك. لايفكر سوى أنه قد صار وحيدا تقريبا من زمن طويل ، بعد أن نسيه الجميع وكفت الخطابات عن الوصول ، والتليفون وجرس الباب عن الرنين ، وكلَ البصر عن القراءة ، ولم يبق إلا المذياع مربوطا على محطة واحدة يسمع منها القرآن معظم الوقت ، ويطرق فيغفو وينتبه ، ليمضى اليوم كله والليلة كمثليهما كل مرَة ، ويلوم عزرائيل بصوت عال أنه لايقوم بواجبه باتقان واهتمام كما يفعل مع باقى الخلق ، ثم يبتسم فى ثقة واطمئنان.

دخل الأستاذ عبد العزيز عامه الثالث بعد التسعين ، ورغم أنفه بدا أكثر مللا وتأففا من جلسته الطويلة ، بعد أن أرهقه الضعف الذى شمل عظامه وعينيه فيتحرك بحساب ويتكلم نادرا ، والحديث لابد أن يكون حول المجهول الذى يعرفه كل الناس ويبغضونه ، ويفيض فى كلامه حتى يبين شوقه الشديد لملاقاته.

سقط الأستاذ. وجدته زينب هانم راقدا بجوار السرير بعد محاولة شقية أن يتحرك دون مساعدة . وفى رضاء بقضاء الله أبلغت الجميع. ولكن عزرائيل خيب الظن ، فقد توقعوا أن يكون الرجل قد مات بالفعل ، وتواتروا لتقديم الواجب ، إلا أن حفيده الطبيب كان أول من وصل ، ووجد كل العلامات تعلن عن دنو أجله بدرجة واضحة فنبضه

انخفض إلى ثلاثين فى الدقيقة وهذا نذير واضح فى سنه هذه ، ولابد أن ينقل للمستشفى فمازال الأستاذ حيا.

هناك فى المستشفى زرعوا للأستاذ عبدالعزيز تحت جلد صدره قطعة صغيرة من التكنولوجيا تنشط عضلة القلب وتنظم دقاته. كل ذلك تم فى ساعتين فكان حظه رائعا وأفاق بعد ساعات ، ثم عــادوا بــه قــرب العصر إلى منزله ليفاجأ بالجميع قد أتوا ليقدموا العــزاء للأســرة ورأى عيونا تحملق ، بينما هو جالس فوق كرسيه المتحــرك يدفعونــه نحــو حجرته ، وقد فهم ما فهموه فوجم لحظة.

رأيت أستاذى لأول مرَة منزعجا مأخوذا مشدوها. ورأيت فــى ملامح وجهه التى قطبت فجأة تراجعه عن لومه المستمر لعزرائيل لأنــه لم يقم بواجبه تجاهه ، ونظر إلى الموجودين فى برود ولعله تمــتم فــى داخله.. سعيكم مرفوض ، وأومأ برأسه نحوى أن ألحق به، فدخلت إليه ربما أراد أن يقول لى شيئا.

***

الحركة الأولى لحمار ساكن

ليال حمراء فى صحبة الأصدقاء تعدل ألف ليلة مضت . يعب فيها وائل وينهل من الخمور الرخيصة والغالية ، ثم ينحط مهدودا فى حضن ساقطة يفرغ فيها شبابه وحيويته حتى لا تلـــح عليه فكرة زواج أبدا . أصدقاؤه المخلصون دائما يعدون ما يشتهون ويتشهى فى أماكنهم البعيدة عن العيون ، عيون الناس والبوليس ، حتى لا يزعجهم فى لياليهم الطروبة التى تمضى فى دخان الحشيش والكئوس . ثم اقتحم عالمهم صديق معه البانجو والمشموم ليدخلوا دنيا جديدة دستورهـــا وقوامها الطفـــو فوق سطح العالم ، وكان شعار جميعهم اشترى دماغك ، فأعجبه الشعار واشترى دماغه هو أيضا .

فى الصباح كانت المواجهة عندما استيقظ وائل فوجد المرأة مازالت إلى جواره فجلس يحاول جمع شتات فكرة يحسب الموقف فهو لا يدرى ما إذا كان فى بيته وكان حلما ولم تمـــر السنين ، أوكان بالأمس حضور هنية عندما جلسوا يشترون أدمغتهم فانضمت إليهم ، وظل يحدق فيها يحاول التركيز ، وبدا كغبى يحاول فهم مسألة حساب .

ليلة سوداء كانت بالفعل . كل الألوان كانت سوداء ، الليل أسود ، والفعل أسود ، وضمائر الكل كانت قد أصبحت كذلك منذ زمن . دخل ليلتها أحدهم ومعه امرأة سكرانـــة وسرعان ما انضموا يمارسون عملية شراء الدماغ وتعميرها بالكيف من كل صنف ولا يهم النوع ، المطلوب فقط الغياب عن الوجود والطفو فوق كل السطوح. وائل أعجبته المرأة رآها طويلة بيضاء وأحس أن وجهها أليف لديه وربما مرت عليه ذات ليلة . وتلقف المرأة فى أحضانه ولم يكن يهمها ساعتها من سيأخذها .

عندما كان وائل عائدا من الحمام صدمت يده سكين كانت فوق المنضدة ووجد فيها الحل فتمسك بـــها وعاد إلى المرأة النائمة وذبحها فى هدوء ثم أجهز عليها بطعنات كثيرة فجرت الدم الذى توهم أنه يغسل به عارا .

جلس وائل فى قفص الاتـــهام يهتز فى حركة عصبية رتيبة ، بينما الناس كلهم ينظرون إليه ، توهم هو ذلك ورأى النظرات سهاما تنغـــرس فى لحمه ، ووجد حرجا كبيرا فبكى فى صمت . القاضى حكم بسنوات سجن مؤبدة . بعد نـــهاية الجلسة سمع صوت ارتطام وحدث هرج كثير ، لقد قفـــز وائل من الدور الثالث هربا من عذاب الضمير ، وكانت آخـــر كلماته الخافتـــة تطلب من هنية أن تسامحه ثم أغلق عينيه إلى الأبد .

* * *

طقـــوس الأحـــزان

أحمـــد – خير ... ؟

محمـــد – الأستاذ سيد تعيش إنت .

– يـــا ا ا ه إنا لله وإنا إليه راجعون . الرجل كان واقفا معى فى الصباح . كيف حدث ذلك ؟

– بعد صلاة الظهر اتصل بزوجته للاطمئنان ثم وضع ســماعة التليفون وفارق الحياة فى ثانية واحدة .

– ألم يكن يشكو شيئا ؟

– أبدا ، صحته كانت قوية تماما .

– أعمار ...!!

– لا بد أن نخاف ، لا ندرى من سيكون النوبة القادمة .

– الموت يأخذ أحسن الناس . ويترك الباقين للنهاية .

– لا بد أن زوجته مصدومة .

– أولاده مازالوا صغارا .

– لهم رب يرعاهم .

– أمه .. أصعب شئ عندما تحضر الأم وفاة الابن

– الدوام لله .

– لابد أن معاشه سيكون قليلا .

– أبدا .. معاش البنك ومعه معاش النقابـــة وقيمـــة بوليصـــة تأميـــن ، علاوة على إيراد أرض زراعية فى القرية ، أيضا زوجته لـــها مرتب محترم يزيد عن ...

– اذا بعد شهور قليلة سوف تتزوج .

– حرام عليك يا رجل .

– كلام الشرع أربعة شهور وعشرة أيام .

– ليس هذا كافيا

– اذا ... سوف أنتظر مرور السنة ....!!

***

بيـــــوع البيــوت

سمعت ضحكاتها الساخرة بعد أن أنهكتنا ، كنا نلهث دائما طوال الرحلة لجمع الشهادات الدراسية ، والبحث عن عمل ، وتدبير النقود لنحقق الأحلام. كان المشوار عاديا ولكن المنافسة كانت هى المثيرة ، كانت تدفع لأن نزاحم كل من يحاول إزاحتنا ، وتشبثنا بالأمل لنحصل على ما نريد. فى البداية كانت المنافسةعلى المراكز الأولى فى الدراسة. ثم تنافسنا للحصول على عمل ، وأخيرا ودائما للحصول على النقود ،وعندما حصلنا عليها بدأت رحلة عدها. واستقر الحال وحصلنا على العمل والبيت والزوجة والأولاد. كان المفروض أن يسود الهدوء والقناعة لتدور عجلة الحياة كما هو مقرر لها.

*

أحب هانى امرأة فى سن أمه ، ورأى فيها المستقبل والأمل والأحلام. عارض الجميع هذا الزواج. لايريد له الأب أن يخيب. هانى لم يتنازل عن الحلم وعزم على تحقيقه. ذات ليلة جمع ملابسه وكتبه وانتقل إلى بيت محبوبته ليتزوجها فى نفس الليلة. تبرأ منه أبوه والأسرة كلها ، لم يخضع أحد للأمر الواقع ، فاحتقروه ، ثم نسوه. سنوات مرت ترك فيها الدراسة وفصلته الجامعة، ولم ينجح فى عمل. شبعت منه المرأة . اصطادت شابا آخر ثم طلقت هانى ، وتركت له حقائبه على باب شقتها. دموع هانى لم تشفع له لا عند المرأة ولا عند الأب.

*

حمدية جذبتها أضواء السينما وأحلام الشهرة وهى على أعتاب الثلاثين ، كانت طفرة. نسيت الزوج والأولاد. أحلامها صارت طريقها ، ودخلت عالم الأضواء لتحقق آمالها ولكن وحدها. أرسل إليها زوجها ورقة اشترى بها البيت والأولاد.

*

كان مرزوق طوال حياته لا يجهد نفسه من أجل المال ، اشتغل فى أعمال السمسرة والعمولات والإتصالات ، فاغتنى وتزوج. ولما كان المال يأتيه سهلا فإنه كان ينفقه بطريقة أسهل ، فتجمع عليه صحاب ورفاق ، وانزلق ليدخن الحشيش. ولما كانت السمسرة والعمولات حياته فإنه استطاع أن يدخل إلى تجار الصنف ليشترى ويبيع لهم دون أن يتورط كثيرا. لما طمع فى الربح وبدأ الصفقات لحسابه منافسا للتجار ، باعوه .. أرشدوا عنه ، فقبض عليه ، وهكذا أزاحوه عن طريقهم ، وترك البيت والعيال.

*

عشق متولى أن يجلس على المقهى كل ليلة ، ليرى الدنيا من هذه الزاوية ، حتى احترف لعب الورق والطاولة ، سعادته كانت عندما يصيح رابحا الدور. ثم ينطلق إلى بيته فى نهاية الليل ، كان هكذا دائما. طائعا مختارا كان يفضل حياته فوق كرسى المقهى وصبرت عليه زوجته زمنا. دوام الحال من المحال ، فعندما عاد مبكرا ذات ليلة وجد رجلا فى فراشه ، فقتلهما معا وأمضى باقى حياته يعد اليام فى سجن طرة.

*

تطلع مهدى للأسهل والأكثر حتى أصبح مديرا لصالة القمار فىفندق سياحى ، يرى عشرات الألاف من الدولارات تتدفق من الجيوب ، وداعبته أحلام الثروة ، فرسم وخطط وتدرب حتى نقل جزءاً من نشاطه إلى شقة خاصة اجتذب إليها الرواد ، يتقاضى منهم أجرا عن المكان وبعضا من الربح ، فأدمن وتورمت مع أحلامه ثروته وتوهج كثيرا. التقطته الشرطة وضيقت عليه الخناق ، فضاقت الدنيا فى عينيه فتخلى عن كل ما حوله وانتحر.

***

البكاء بعيون مفتوحة

منذ خمس سنوات قبل خمسين عاماً مضت عرفتها، وبقيت إلى جوارها سنينا علمتنى فيها الحياة.كانت دائماً رأيتها أول مرة قوية فتية حنونة رقيقة وجميلة. رأيتها ملاذى وملجأى كلما ضاقت بى الدنيا أجد لديه الأمان والدفء، ثم تدفعنى من جديد لأمارس حياتى فأشتاق فأعود ملهوفاً أتلمس راحة بالى وقلبى.

العزة والشموخ والكرامة والمهارة وأشياء أخرى، ولما أحاول العد سوف أجد الكثير، ولن أنس ما كان منها فى حياة قدمتها طائعة مختارة فقد وجدت نفسها. عمرى مضى إلى جوارها أشم عطرها، والمس حنانها وأرى جمالها ورقتها وقوتها حتى أكمل التاج الأبيض فوق جبينها، وزاد صبرها وحكمتها وتسليمها وتكامل كل ذلك مع الوقار والإيمان، ويوماً إحتضنتنى كيلاً أذوب فى الأحزان عندما شعرت أنى أقاسى وحدتى فى عالم فسيح فأحسست أنى لست وحدى أبدا.

أذكر يوماً قديماً مدت يدها واحتوت كفى الصغيرة وخطت بى الطريق. ويوماً آخر أحسست بها تمسك يدى متشبثة فأدركت أنى يجب أن أكون رجلها وان أبقى إلى جوارها احميها وأعطف عليها. للعجب وجدت أنها مازالت تحتضنى لتحمينى تعطف على وتدفئ غربتى فى الدنيا لما فقدت عزيزاً فى دورة الشمس والقمر حولى.

فراق الحى فيه راحه بأمل لقاء بعد اللقاء الأخير. هذه المرة هو مختلف. المرارة فيه أشد والسواد أحلك، والحزن يعتصر القلوب أولها قلبى أنا . لا .. لا أراه مختلفاً بل الوقع مختلف، فأنه عندما كان مع الآخرين فأنه لم يهزنى كثيراً، لذا فقد أنتقم منى هذه المرة، فأمسك بى يرجنى رجاً كما زلزال لا يتنهى وكابوس يستمر متتالياً فى طقوس يعرفها الناس جميعاً.

غلاله رقيقة قاتمة اللون حطت فوقى وأحاطتنى من بعيد، ثم ضاق الخناق والنفس والموقف. لم أتوقع أبداً الأحداث لا النهاية. كانت المفاجأة

رغم توقعها غاية فى القسوة. زادت كثافة الغلالة فوقى وشملتنى حتى حطمت ضلوعى واكتشفت أنى فى بؤرة الحزن.

لم أهبه يوماً، ولم يخفنى. السلاح فقط يرهبنى. سلاحه ماض تماما، فى غاية القوة والحكمة الأبدية، انه الفراق. يأخذ بلا عودة منتقماً أنى لم آبه كثيراً به فى مرات مضت. وأنا عندما أحب، فأنى أحب بعمق وقوة وإخلاص. ولما فارقتنى فأن ذلك ذبحنى فابتسم مواعداً لمرة قادمة نتلقى فيها، أما معاً أو أمام فراق جديد يلسعنى به.

قريرة العين هادئة كانت أبداً. ولما رحلت أنها تركتنى مطمئنة، فقد انسحبت فى صمت وهدوء إلى عالم الأبدية تنتظرنى فيه. صديقى... لا تبتئس من أجلى، خطوات خمس واكمل الستين، والخطوات على نفس الدرب ونصل جميعاً إلى هناك.

زيارة عم عسل

عندما دق جرس الباب كان الجميع مشغولين فقمت لأرى الطارق. لم اصدق ما رأيت، فقد كان الرجل بلحمه وشحمه أمامى، وهذا لم يكن متوقعاً على الإطلاق. مد الرجل يده يصافحنى واستبقى يدى معه لحظات ليذكرنى بنفسه،ولك أكن فى حاجة إلى ذلك، فعلى الفور عرفته، لقد كان عم عسل.الكل يذهبون إليه ليجهزها لاستقبال وافد جيدي أو يذهب إليه محمولاً حيث يودعه فى مقره الأخير. أما أن يأتينى الرجل بنفسه فهذا شئ فير مفهوم تماماً.

سلمنى عم عسل إنذاراً من البلدية بإخلاء المقبرة، حيث سيشقون هناك طريق جديداً، وعلى أن أنقل رفات من أجبهم، أو يهدم " البلدوزر" المقبرة كلها، قال لقد حمل لجميع رفات أقاربهم ماعداى فإن عنوانى قد تاه عنه. وضعنى الرجل فى المأزق فأن الغد هو اليوم الأخير فى المهلة، وإلا فأنهم سوف يجرفون عظام والدى فى طريقهم. ألقى الرجل السلام ومضى بعد أن شد بيديه يدى فى سلام حار، يحفزنى أن أدفع له الغد بسخاء، ،أحسست بأن يدى ليست جزء منى، وعلى الفور مضيت أغسل يدى عدة مرات، أشعر كأنما أودعها عم عسل لمسات عزرائيل.

أخرنى المدير فى اجتماعه كثيراً ، عندما وصلت إلى المقبرة كانت الشمس توشك على المغيب، ووجدت عم عسل يكاد يؤنبنى على تأخيرى، ونادى على الولد ليحضر الفانوس والصندوق لأنزل معهد المقبرة المفتوحة لأتأكد أنى قد حصلت على الرفات العزيز فتنتهى مسئوليته.

عشر درجات لأسفل، ثم السرداب القصير، وبابان إلى اليمين ومثلهما إلى اليسار. اليمين للرجال والآخر للنساء. ويدخل عم عسل والولد ومعهما المصباح والصندوق، وظلهما المتحرك على الجدران يتراقص فى مخيلتى فى تمايل مخيف، السكون يلف المكان، ورائحة التراب المكتومة تنفذ إلى أنفى، ليتمكلنى شعور الوحشية والوحدة والقلق ثم الخوف. هل حقاً سأرى أبى بعد ل هذه السنوات ... ؟ مكيف سأجده ... ؟ وكيف سيكون ... ؟ وهزتنى الرهبة. مزق السكون صوت عم عسل ينادنى أن أتقدم وكانت تجربتى الأولى أن أدخل مقبرة.

رأيت جثمان أبى، كما حكى لى عمى، يسبقه إلى الحائط مكان لأثنين آخرين. رفعوهما من مكانهما وكان هو الثالث من جهة الجدار. عم عسل مد يده ليفك القماش، واندفعت للخروج فلم أطق الرؤية اخترق أذنى صوت ارتطام العظام بالصندوق الكرتون كدوى قنبلة، فاتسعت خطوتى قبل أن يصبينى الدوار. مضيت الدقائق الطويلة حتى لحق بى الرجل يغلق الصندوق ويأمر الولد أن يسلمه لى. مددت يداً مهزوزة لتلمس الصندوق فى وجل لأحمله فى احترام وقدسية وحيرة معاً، وغالبت دمعة انفجرت وحدها لم أسيطر عليها، وأحسست بالحنين وأنا أضم الصندوق فى رفق إلى صدرى كأنما استرددت وديعة غالية غابت عنى كثيراً.

بينما ألملم شتات إنفعالاتى برز السؤال الكبير.؟ ماذا أفعل وقد حل الظلام والأمر يتطلب السفر ... ؟ وعندما وصلت إلى المنزل كان المطر قد بدأ مع الظلام ليزيد من مضيقتى ومعاناتى، أحسست بذلك عندما كنت أدور حول السيارة أتأكد من إغلاق أبوابها خاصة الحقيبة الخلفية حيث الصندوق العزيز. لحظت زوجتى تجهم وجهى وسألتنى، لكنى تجاهلت قولها لأسألها عن الحال والأولاد، أريد ألا أتورط وأحكى عن مأزقى، فلم أخبرها بحضور عم عسل الليلة الماضية، أعرف رقتها وخوفها وتشاؤمها أيضاً. بعد ان تناولنا الطعام جلس الأولاد حولى يتجاذبون الحديث مع أمهم، بينما أنا شارد فى ورطتى العجيبة.

زارنى والدى فى المنام رأيته قوياً كعهدى به ، ارتسمت ملامح الراحة والابتسامة على وجهة أقبل يسألنى عن أحوالى وعن أمى وأخوتى ولم ينس زوجتى وأولادى، ورأيته سعيداً بهم. أوصانى ألا أضايق زوجتى بأسئلتى الكثيرة وحصارى لها، فأنها مخلصة ويجب أن أطمئن إليها صافحنى أبى وقبلنى وأحسست بيده خفيفة كالهواء، وقبلته ندية، أحسست بملمس لحيته ناعماً للغاية، وأحاطت بى رائحة عطر رقيق، ثم قال فى تؤده لا تنس أباك، ونظر إلى نظرته التى أعرفها عندما يود أن يؤكد على أمراً.

فى الصباح جمعتنا المائدة، وفجأة صاح إبنى الصغير ليثير انتباهنا إليه، قال انه حلم بجده ليلة الأمس، وأنها المرة الأولى التى يرى فيها

جده فى المنام. قاتل أن جده مسرور منه لأنه يذاكر دورسه جيداً، وأنه يجب أن يراه طبيباً، وأن يعتنى بإرضاء أمه وإرضائى، ثم ربت على كتفه بحنان وقبله بخفة فوق خده، وأردف قائلاً، أنه أحس بملمس حية جده ناعمة للغاية، وانه شم ساعتها عطر جميلاً، وضحك الولد وهو يتحسس خده سارحاً. قبل أن يكمل الولد الحديث، اندفعت إبنتى لتقول متعجبة أنها حلمت بجدها أيضاً،وأنه حدثها وأحست بيده الخفيفة تمسح على شعرها وقد لاحظت ملمس لحيته الناعمة عدما كان يقبلها، ثم حكت عن رائحة العطر التى شمتها هى الأخرى وهى تحلم.

ألقت زوجتى المعلقة فى الطبق، وطرنا جميعاً نحوها لنراها مشدوهة تماماً، والكلمات تقفز وتتناثر من بين شفيتها، قالت هذا عجيب، لابد أن والدك كان هنا بالأنس. لقد زارنا جميعاً فى أحلامنا، لقد حلمت به أنا أيضاً وكان يسألنى عنك وعن الأولاد فى حديث متصل، وعندما هم بالانصراف أحسست يده خفيفة للغاية، وأحسست بالفعل بنعومة لحيته، بل وشممت العطر مثلهم. واتجهت أنظارهم جميعاً نحوى، وعيونهم تسألنى هل زارك أنت الآخر ... ؟ استجوبونى كلهم، كما لو كنت عالماً بتفسير الأحلام. وتشمموا الهواء متعجبين من الرائحة التى هلت علينا. ولقد شممت العطر فى الحلم وأشمه الآن تشمه زوجتى والأولاد أيضاً، وأحسست بالحيرة والاندهاش. وخرجت منى الكلمة منطقة دون أن أحسب تأثيرها، قلت أن جدكم معنا منذ الأمس بالفعل، ورفعت زوجتى حاجبيها فى اندهاش واضح تريد تفسير أكبر، فقد مات الرجل منذ أكثر من ربع قرن من الزمان، التف الأولاد حوالى يسألون ويريدون ان أحكى لهم عن حياة جدهم، فلم يروه وهم صغار، رأوا صورة فقط وجلست احكى. قالت زوجتى تقاطعنى، والدك أوصانى فى الحلم لأذكرك أن هناك شيئاً هاماً يجب ان تفعله أقشعر بدنى من المفاجأة وسرحت. قالت زوجتى ياترى ما هو الشئ الذى يطلبه منك بعد كل هذه السنين ... ؟ قلت فلنقرأ له الفاتحة !...

رن جرس التليفون فجأة لأفيق مما أنا فيه ووجدت رئيسى يستدعينى للاجتماع لبحث المشاكل التى ظهرت فى اجتماع الأمس. ولم أكد استدير حتى رن الجرس مرة أخرى وكانت أختى تخبرنى أن والده

زوجها قد توفيت وان موعد الجنازة عند الظهر. وتوالت أجراس التليفون فى ال كما لو كان التليفون قد أصاب السعار، فأحدهم يطلب أن يحضر الآن ليستدين مبلغاً من المال، والآخر ينبهنى أن أذهب غليه لأسدد قسط جمعية المصروفات المدارس. ثم زميل لى يطلب أن أمر عليه فى طريقى للعمل والأولاد يستعجلونى فأنهم قد تأخروا عن موعد المدرسة. كيف سأفعل كل ذلك ؟ يجب أن أسافر فوراً. وتوقفت لحظة لأوازن وقتى ونفسى. فجأة اخترق أذنى صياح زوجتى عندما انفجرت ماسورة المياه فى المطبخ لتغرق الشقة كلها فى الماء.

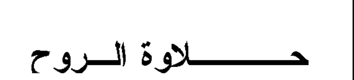
كل ذلك متتالياً بعد الإفطار وعى أن أفعل كل ما أوردوا جميعاً وفوق ذلك استدعى البواب والسباك.

زاد أر تباكى وحيرتى، والصندوق العزيز الذى يجب أن أسافر به يملأ فكرى وتوترت أعصابى فيما يحدث. قررت أن أدع كل ذلك وليحل كل منهم مشكلته. هبهم أنى مرضت أو مت، فماذا سيفعلون ؟ لابد انهم سوف يتصرفون بدونى وهكذا كان القرار الحاسم الحازم سأسافر الآن وفوراً وليدقوا جميعاً رؤوسهم فى الحائط وليعتمد كل منهم على نفسه وينسانى مؤقتاً.

اتجهت بسرعة ناحية غرفة نومى لأبدل ملابسى. وعندما خطوت انزلقت بى السجادة فوق الماء المتدفق، وسقطت على الأرض، ومتأوها متوجعاً قمت مبتلاً أنفطر الماء، والأولاد حولى باسمين أو ضاحكين، فنهرتهم وبدأت أرى كل الأمور عابسة، ولم أغير رأيى . سوف أسافر الآن.

صراخ زوجتى، ونداءات الأولاد، كانت تلاحقنى بينما كنت أقفز فوق السلم خارجاً كلهم يريدوننى أن افعل شيئاً، والدى أهم. فتحت حقيبة السيارة أطمئن على الصندوق، ودارت حوله عيناى، وهدأت عندما وجدت كل شئ على ما يرام. لحق بى الأولاد لأوصلهم إلى مدرستهم، وسألنى الولد عن الصندوق الذى رآه. فقفلت حقيبة السيارة ودعوتهم لركوب وقلت سأحكى لك يوماً حكاية عن الصندوق. وامتدت يدى تفتح راديو

السيارة لتنساب بعض آيات القرآن فابتسمت ولاح لى طيف والدى يبتسم هو الآخر مشجعاً، ربما ليعيننى على بقية اليوم الصعب الذى ينتظرنى.


حـــــــلاوة الـــروح

كان يوما عاصفا بريح متــرب ملئ بالفراغ والألم والضياع . الكون كله أظلم مقفرا ، بينما قفزت أشباح على جانبــي النهر والطريق ، وصرخــت غربان تنعــق منذرة . هــاتف نادى بى أن استغفر قبل أن يفوت الأوان.

كنت كمن يهوى إلى فوق ، حتى اصطدمت بجدار من رخام صلب بارد أسود اللون كئيبا ، فتحطمت ذاتى كلها وتناثرت ، فقعدت أجمعها وأتحسس مكانـــها على السطح الجامد ، حتى انغلق الظلام على عينىّ ودخلت كهفا عميقا وفترت قوتى وحولـــى.

هتف ملك أنه قد مات ميت ، فتخلصت الروح من جسدى . واجتازت كل الدنيا إلى الآخرة ، هائمة وقد سكنها عمرى الفائت المحمل بأوزاره وذكريات ما إنقضى منه وسط الخلق .

نظرت فرأيت عالم الأموات الذين لم يصلوا إلى البلى ، وتدافعت لهم ذكرى الحياة والمال والشهوة ، نادمين أنــهم تركوها للكل غيرهم ، فكانوا بخلاء على أنفسهم أن يدركوا ما هم الآن فيه ، فلم يبدأوا حتى فى الاستمتاع بنعيم الانتظار أو جحيمه .

صاح ملك .. ماذا ستفعل يــاصاح بعدما دخلت الموت ؟ قلت سأصنع ما صنع باقى الأموات ، وسأبقى أنتظر آملا . أدركت أن هذا الذى أراه هو جسدى ، يتراءى لى وأنا فوق فى عالم الروح ، فكنت سعيدا أن يفــنى جسدى المرهق المثقل بالذنوب لتبقى روحى لأنظر فى أمرها بعد الانتهاء .

أحسست بروحى تتحرك تثقلها الطموحات والأمانى والرؤى والأحلام ، دائبة تؤلمنى أنى لم ألحقها فـــى حياتى ، فإذا ما كللت ووقفت أستريح ، فإنـــها تلسعنى بسوط الندم والأسف والرغبـــة ، أن أكد بحـــثا عما كان ، لأرى الذنوب والآثام والأخطاء وحقوق الآخرين ، فتعذبنى بـــها فى جولة ألم تالية ، لأدور دائما الدائرة كلما طلعت أو غابت شموس وأقمار على دنيا الأحياء . هنا فى عالمنا الجديد ننســى الأجســاد ونسترجع مـــا مضـــى فـــى حيـــاة الأبدان كل يوم فتعذبنا ذكريات فسادنا وطمعنا .

خيل إلى أن جناحيـــن قد نبتا لى أطيـــر بـــهما فى زمان ، أو أن الزمان هو الذى يطير وأنـــا ثابت فى مرقدى ، لتمر السنون والقرون تتـــرى ، أشاهدها فكثر على الزمـــان وحوادثـــه ، حتى تورم مخـــى وانفجر مرات وتبعثرت خلاياه كل مرة أمامى وخلفى ، ومشغوف أنا دائما

ألملم عقلى بلا طائل ، حتى رأيت السوس والدود يأكلان منى فى نشوة بالعفن ، يشمان ريح النتــن بسعادة ليكملا الالتــهام .

دقائق مرت أو قرون لا أحد يدرى . صاح ملك فى اندهاش وسرور ، فانتبهنـــا جميعا . رأينا كما أنوار أقمار الكون كلها تجمعت فى ليلة صيف حانية ، والنور آت برقة صوبنا يفلق الظلمة على جانبيه ، وكأنما أمطرت السماء عطــرا وصفاء وطهرا فوقه ، فإذا هــو لامع نظيف بــراق فى بـــهاء وعظمة وجلال وخيلاء وروعة ، فكدنا نسجد جميعا . صاح ملك .. السجود لله وحده فاستقمنا واقفين وعرفنا أنه الشفيع ونادينا كلنا نستنجد فرفع يده مبتسما فى فرح وقال طوبى للتائبيــن فصرنـــا ندعوا مسبحين وسرنا خلفه حتى يسقينا فلا نظمأ بعد ذلك أبدا ، فرضــــى .

***

شادى الكلمات

سألت أصدقائى .. كيف كانت حياتكم ؟

قال الأعمى.. لقد رأيت طريقا فرحت أعدو فيه أتأمل و أعيش و أهدى من لا يدركون ، و لكنى وصلت وحدى..!
قال الأصم.. لقد سمعت بإمعان حكايات الناس فيهـا الحكـم و المـواعظ ووعيت، و لم يجد ذلك مطلقا.
وقال الأخرس.. لقد حدثت الناس دائما عن الفضيلة فلم يهتم بها أحد ولا حتى أنا.
متحسرا همست لنفسى لست بالأفضل، فالتزم قبل الفوات.

عصام الصاوى

تجربة إبداعية فريدة

بقلم د. جمال عبد الناصر

لعدد من الأسباب المهمة جاءت مجموعة " فى محلة الأطهار " لعصام الصاوى لافتة للنظر ، مثيرة للجدل، وإن كنت أتوقع مسبقاً ثمة اتفاقاً بين القراء النابهين لها على قيمتها كتجربة جديدة تستحق الاهتمام. أول هذه الأسباب الفكرة الجريئة التى آثر القاص أن يتناولها بين دفتى مجموعته ، وهى فكرة الموت بأبعادها المتعددة. وثانيهما الإطار النظرى ، أو الشكل الفنى الذى اختاره القاص لمعالجة فكرته المحورية ، والذى لا تكتمل ملامحة الأساسية إلا بنهاية قصص المجموعة. أما ثالث هذه الأسباب وأهمها فهو يتمثل فى وعى القاص بإشكاليه ضم مجموعة من القصص من كتاب، بداية من اختيار عنوان المجموعة، ومروراً بمضامين القصص وبنائها، وانتهاء بتأثيرها النهائى والكلى فى نفس القارئ.

ولعلى أتوقف قليلاً عند هذا السبب الأخير، والذى كان بمنزلة الدافع الأساسى وراء إعجابى بمجموعة "فى محلة الأطهار" ورغبتى فى الكتابة عنها، لاسيما وأننى لاحظت أن الصاوى قد أجاب بشكل مرض عن تساؤل مركب طالما أرقنى نقدياً، ألا وهو المحك لإختيار مجموعة بعينها من القصص لضمها بين دفتى كتاب. فهل تأتى ذلك بشكل عفوى إن لم أقل عشوائى ، أم بشكل واع مقصود من قبل القاص؟

وهل ثمة أمر منطقى بحكم عملية الاختبار فى المقام الأول ، أم أن ذلك يأتى تبعاً لهوى القاص؟ وهل ثمة معنى أو رسالة بالنسبة للقارئ ، أو مغزى ــ على الأقل ــ بالنسبة للناقد، أم أن ذلك لا يدخل مطلقا في دائرة اهتمام القاص ؟ وهكذا يتشعب التساؤل ليزاداد لآمر تعقيدا !

ولكن عصام الصاوي أدرك بتلقائية أنه يتعين عليه أن يربط بين مجموعة قصصية مضمونيات وتقنيا ، مما جعله يجيب على ذلك التساؤل المركب دون أنه يتعرض له أو يخطر بباله ، ودون تكلف أو تصنع ، وهذا ماشدني خصيصا إلى مجموعته ، فلطالما تأملت ضرورة أن تتصل قصص أية مجموعة ، تماما كما لو كانت حلقات في سلسلة. فمن ينشر مجموعة قصص مجتمعة هو بالنسبة لي كمن ينشر ديوانا من الشعر ، محاولا أن يحقق من خلاله ما يعرف بوحدة التأثير ، وهذا ما فعله قصاصون من أمثال تشيكوف الروسي وهمنجواي الأمريكي " في زمننا " بل هذا ما فعله بعض من أفضل من كتبوا القصة المصرية أمثال يوسف إدريس " أرخص ليالي " ، ونجيب محفوظ " خمارة القط الأسود " ، ويوسف السباعى "اثنتا عشر إمرأة " ويوسف الشارونى "العشاق الخمسة".

إن القاص النابة ــ فى تصورى ــ لايختار أية قصص والسلام إذا ما اعتزم أن ينشر مجموعة، وإنما يختار قصصه بتؤده وعناية ، بحيث أن يوجد بينهما وحدة المضمون ، علاوة على وحدة الشكل والبناء ، وإن لم يمنع ذلك عدداً من القصاصين من نشر إبداعاتهم القصصية كلما ألحت عليهم ، لتبيان التطور المرحلى الذى يطرأ على ملكة الإبداع لديهم. قد يبدو هذا مهماً ، ولكنه لا يهم الناقد المتخصص فقط ، بل والمؤرخ الأدبى. أما القارئ العادى ــ أو حتى المتخصص ــ وهو من يسعى القاص ــ كأديب ــ إلى استقطابه والتواصل معه، فهذا لايهمه كثيراً مراحل تطور الكاتب، قدر اهتمامه بروعة إبداعه ومدى تأثيره عليه.

إذن لابد أن تحمل قصص مجموعة ما ، أيا كانت طبيعتها ، معنى أو رسالة إلى قرائها، تماماً كما تجيئ بمغزى ما إلى نقادها ، وكلاً الشيئين يثريان حركة الإبداع ، وبخاصة عملية تفعيل دور الأدب فى الرقى بشكل عام. هذا بالإضافة ــ طبعاً ــ إلى القالب الذى يصب فيه القاص محتوى قصصة، وأعنى بذلك الشكل بالنسبة للمضمون ، تلك العلاقة السردمية التى كشفت عنها الأعمال الإبداعية منذ زمن هو ميروس حتى اليوم ، والتى أثارت جدلاً بين النقاد ، إلى أن استقر الرأى على أن المضمون غالباً ما يفرض الشكل ، أو على الأقل ــ تتشكل تفاصيله فى إطار ما ،

دون حتى أن يدرى الكاتب أحياناً، إذا ما تحدثنا من زاوية التلقائية التى تقابل الصنعة ، إلى أن تكتمل دائرة التوحد داخل العمل الإبداعى ، حيث يصعب الفصل بين إطاره ومحتواه.

فما المعنى أو الرسالة التى تتمخض عنها مجموعة " فى محلة الأطهار " بالنسبة للقارئ ، وما المغزى الذى يكشف عنه ذلك بالنسبة للناقد ؟ للإجابة عن هذا السؤال أعود مجدداً إلى أول سببين طرحتهما فى بداية هذه القراءة، واللذين أسهما إلى حد بعيد ــ فى تقديرى ــ فى تمييز مجموعة الصاوى ، وأعنى بهما المضمون وكيفية تناوله. ولما كان الشكل والمضمون وجهين لعمله واحدة "العمل الإبداعى" ولايمكن الفصل بينهما لتداخل الواحد بين ثنايا الآخر، فسوف أعرض للأثنين فى آن واحد معاً. ولكن قبل ذلك تجدر الإشارة إلى أن عنوان المجموعة نفسه جاء موائماً لقصصها ، إذ يمثل مدخلاً جيداً لقراءتها والاستمتاع بها ، واستيعاب سياق الحكى فيها. فالقاص يريد من البداية أن يضعنا فى منزل القوم الأطهار، حيث الشفافية والتسامى اللاحقين لعملية الاغتسال والتطهر، من ذنوب الدنيا بالطبع ، وهذا بالضبط ما تنطوى عليه التجربة السردية عبر أربع عشرة قصة يبدأها بالقصة ذاتها المغزى المبدئى " طقوس الأحزان " وينهيها بالقصة ذات المغزى النهائى " فى محلة الأطهار" أى قصة العنوان. وتجدر الإشارة أيضا أن الإنتقال المقصود من جانب القاص ــ من حالة إلى حالة أسمى، أو من حال إلى حال أسعد حظا ً، تدرجى ، من تحت إلى فوق ، فى حركة تصاعدية ، تظل ترقى معها الذات ، فى الوقت الذى يتعمق فيه التأثير، النصل إلى ذروة الحدث الذى يصير دراميا بقصة الختام.

تأتى أولى قصص المجموعة " طقوس الأحزان " لتمهد لفكرة الموت التى اختارها الصاوى موضوعاً أساسياً يخوض غماره ، ليستكشف أبعاده ، متجولاً فى عالمه البعدى ، أى بعد الحياة ، محاولاً أن يفهم ولو بقدرما تلك الحقيقة الوحيدة المرة فى دنيا البشر. ليس ثمة راوى فى القصة ، إذ تأخذ شكلاً حواريا ً، لايفضله القاص كثيرا ً، وإنما حاول أن يجرب من خلاله استهلال موضوعه المحورى [ص]

أحمد – خير...؟

محمد – الأستاذ سيد تعيش أنت.

– يا ..ا..ا..ه إنا لله وإنا إليه راجعون. الرجل كان واقفاً معى فى الصباح. كيف حدث ذلك؟

– بعد صلاة الظهر اتصل بزوجته للإطمئنان ثم وضع سماعة التليفون وفارق الحياة فى ثانية واحدة.

– ألم يكن يشكو شيئاً؟

– أبداً، صحته كانت قوية تماماً.

– أعمار...

ولأن القاص يدرك تماماً مدى الكآبة التى قد يبعثها مثل هذا الموضوع فى نفس القارئ ، فقد آثر ألا يستخدم راوياً ، لاحاضراً ولا غائباً ، على أن يجعل الأمر يأتى بشكل عادى فى حوار تقليدى ، ينتهى بإيحاء بفكرة الزواج ، أى الحياة مرة أخرى ، بعد الموت ، للتأكيد على دورة الحياة ــ الموت ــ الحياة. ليس هذا فحسب ، بل أن القاص جعل استهلاله قصته التالية "بيوع البيوت" هكذا [ص]

> سمعت ضحكاتها الساخرة بعد أن أنهكتنا، كنا نلهث دائما طوال الرحلة لجمع الشهادات الدراسية، والبحث عن عمل، وتدبير النقود لنحقق الاحلام. كان المشوار عادياً ولكن المنافسة كانت هى المثيرة، كانت تدفع لأن نزاحم كل من يحاول إزاحتنا، وتشبثنا بالأمل لنحصل على ما نريد.

مثل هذه الاستهلالة تؤكد حرص القاص على أن يتدرج بموضوعه عن الموت بشكل طبيعى، لا غرابة فيه ، إلى أن يبلغ به حداً مأساوياً بتفاقم العذاب النفسى فى القصص التالية. ولكن حتى هذه اللحظة يقابل الموت بسخرية الحياة ، بل الدنيا عالمها ، التى تضحك عالياً لجرى بنى البشر جرى الوحوش خلف أمالهم وطموحاتهم ، دون قناعة من جانبهم. يقول الراوى ــ الحاضر هنا ، والذى يصير بطلاً محورياً من هذه القصة وحتى آخر قصص المجموعة [ص]

كان من المفروض أن يسود الهدوء والقناعة
لتدور عجلـــة الحيـــاة كمـــــا هو مقدر لها.

ولكن لأن ذلك نادراً ما يحدث ، فإن الكوارث تأتى تترى وتباعاً ، كما يتضح من تلك النماذج البشرية التى يكشف عنها القاص من مستودع عذاباته : الشاب الطامع فى ثروة المسنة ، والفتاة الحالمة بالشهرة والأضواء ، والمقاول الحشاش ، والجالس يوماً إلى المقهى دون عمل ، ومدير صالة القمار. وهذا الأخير يقدم على الانتحار عندما تضيق الدنيا من حوله ، فترتسم علامة الموت من جديد، بعد ضحكة الحياة الساخرة ببداية القصة.

ومن تلك النقطة يشرع الموت فى فرض نفسه على القارئ ، لاسيما وأن القاص راح يستعرض أقنعته المختلفة. فها هو فى القصة التالية " الحركة الأولى لحمار ساكن " يجئ إلينا بنفس فكرة الموت انتحاراً كما فى القصة السابقة ، ولكن بعد أن مهد لها بصورتين أخرتين للموت: الموت حيا ً، ثم الموت قتلاً. يقول القاص فى مفتتح هذه القصة على لسان الراوى الغائب الذى يظهر للمرة الأولى وربما الأخيرة [ص]

ليال حمراء فى صحبة الأصدقاء تعدل ألف ليلة
مضت يعب فيها وائل وينهل من الخمور
الرخيصة والغالية، ثم ينحط مهدوداً فى
حصن ساقطة يفرغ فيها شبابه وحيويته حتى
لا تلح عليه فكرة زواج أبداً.

بطل القصة هنا يهرب فى وعيه من تكملة نصفه الآخر الذى شرعه الله له، فتعاقبه دنياه ثلاث مرات ، مرة عندما يفيق من نوبة سكر ليجد نفسه متزوجا من ساقطة فى " ليلة سوداء " كل ألوانها كانت سوداء " الليل أسود ، والفعل أسود، وضمائر الكل كانت قد أصبحت كذلك منذ زمن " ، أى أنه يرغب فى لا وعيه على فعل ما رفضه فى وعيه ، ومرة ثانية عندما يجد نفسه ممسكا بسكين يذبح به تلك الزوجة [ص]

صدمت يده سكين كانت فوق المنضدة
ووجد فيها الحل فتمسك بها وعاد إلى المرأة

> النائمة وذبحها فى هدوء ثم أجهز عليها بطعنات كثيرة فجرت الدم الذى توهم أنه يغسل به عاراً.

وتعاقبه دنياه مرة ثالثة عندما يجد نفسه يهوى من الدور الثالث "هربا من العقاب أو ربما من عذاب الضمير، وكانت آخر كلماته الخافتة تطلب الصفح ثم أغلق عينيه إلى الأبد".

يربط القاص هنا بين الموت وعذاب الضمير وطلب الصفح والغفران ، أى ينتقل بنا إلى منطقة أكثر عمقا لمعانى الموت المتشابكة ، وبخاصة تلك التى يتجلى فيها الموت بتجربة تطهيرية تصفو من خلالها النفس وتسمو الروح. اذ يطالعنا فى القصة التالية ، وهى قصة " سعيكم مرفوض " يقول الأستاذ عبد العزيز ذى الثمانين عاما للراوى البطل [ص]

> قريبا سأسبقك فأنضم لأبيك وسوف تلحق بنا ، ما هى إلا أيام ستنقضى كلمح البصر بعدها نتجاور الحفرة التى ربما تكون روضه من الجنة إن شاء الله.

لقد زهد الأستاذ عبد العزيز دنياه وراح ينتظر الموت بين لحظة وأخرى. يقول الراوى الحاضر الذى يؤكد موقعة من هذه القصة فصاعدا ، محدثا إيانا عما قاله الرجل:

> الموت ذلك الصديق العزيز الذى يأبى أن يحضر خاصة وأن هذا وقته تماما ، فقد حصد كل دفعتى فى الميلاد والمدرسة والتخرج والمعاش ، ثم تجاوزنى إلى دفعات تالية تاركا إياى.

اذا الموت مجددا فى هذه القصة ، ولكن لا يأتى ، اذ يبدو أن عزرائيل– كما تصور الأستاذ عبد العزيز– قد نسيه تماما ، ولكن ثمة تفكيرا فى دنو الأجل واقتراب موعد الحساب. وهذا ما تكشف عنه القصة التالية ذات الحلاوة المرة ، وأعنى بها قصة " حبيبي سمين جدا " التى تجيئ على لسان الرواية الحاضرة ، الزوجة التى تجد نفسها فى موقف لا تجسد عليه ، عندما يتحول زوجها فجأة إلى شئ ضخم ، متكاسل ، متخاذل لا يقدر ،

بل لا يرغب ، أن يقوم بأى عمل ، أو هكذا تصورت الزوجة ، كلما رأت تلك البسمة التى تغطى وجهة دوماً ، والتى ندرك بنهاية القصة أنها كانت قناعاً يخفى وراءه مأساته الفردية ، حيث أدرك عجزه التام عن ممارسة طقوس الحياة بشكل عادى ، فاستسلم هادئا هانئا لأجله ، لتجده زوجته ذات صباح وقد فارق الحياة. هنا تسيطر على الزوجة مشاعر الوحدة والبؤس [ص]

عندما أصبحت وحيدة بعد أن انصرف الناس، ودخل الأولاد غرفهم ليناموا أدركت أنى بالفعل وحيدة وافتقدت بشدة حبيبى السمين، وأيقنت أن وجوده كان يفى بالمطلوب تماماً حتى ولو كان بغير حوار.

نفس الفراغ والشعور القاسى بالوحدة الذين تشعر بهما الزوجة هنا يعتوران الراوى الحاضر فى قصة "سمير راسبوتين" بنهاية القصة لدى رحيل ذلك الراسبوتين، وإن حاول الراوى أن يتغلب على مشاعره سيكولوجيا بإيهام نفسه بعودة راسبويتين إلى الحياة مجددا عبر متسول آخر يصادفه أثر صدمته فى اختفائه. وتدور هذه القصة من حول زاهد آخر، كان موظفا يوما ما ، ولكن ثمة خطأ أو مجموعة أخطاء تعرض لها ، جعلته ناقماً على البشر ، زاهداً فى الدنيا ، فافترش الشارع والتحف السماء ليتحول إلى شخصيته أسطورية تتناقلها الألسنة إلى أن يختفى فجأة من على ذلك الرصيف الذى قضى عنده أكثر من عشرين سنة من حياته ، يقول الراوى [ص]

مر عام وكنت مارا من هناك ، وعلى ناصية الشارع نظرت متوقعا أن أرى الرجل جالسا هناك، ولم أره ، ولم أجد آثاره فى مكانه. توقفت وسألت... لقد مات...ذات صباح... وترحمت على الرجل ووجدت أن الأمور تسير كالمقدر لها ، ومضيت...

ثمة تسليم هنا بقضاء الله وقدره ، وثمة اقتناع بضرورة الموت لانبعاث الحياة من جديد والقصة التالية، "حفرة على ضفاف نهر" تؤكد هذا

المعنى ، بل وتفجر بعداً جديدا ، وهو الحلم ، الذى يوظفه القاص فيما بعد بشكل يلفت النظر ويثير الإعجاب إذ يتراءى لزوج فيما يشبه الحلم أنه يجهز حفره ليوارى جثة بجوار النهر، ربما كانت جثة زوجته. ثم لم يلبث أن يتراءى له فيما يشبه الحلم أيضا أن زوجته – ربما التالية – أخذت مكانه ، بينما أخذ هو مكان الزوجة السابقة ، بعد أن صار جثة حيث تآمرت عليه تلك الزوجة مع عشيقها وقتلاه ، ثم جاءت الزوجة لتوارى جثته بجوار النهر. الدرس هنا واضح ، والعبرة لا يختلف عليها اثنان ، فكما تدين تدان ، واترك الثأر والانتقام كله لله الواحد القهار. يقول الراوى محدثا نفسه بنهاية القصة [ص]

> هاتف قال أجدك حيرانا كئيبا تمنيت أن تقتلها لتستريح فتآمروا عليك ، جميعا وقفتم أمام الحفرة يريد كل منكم أن يقذف الآخر ليفوز ، وكان القتل حلا ليعيش الباقون مذنب مستمر يشد الهم باقى العمر انتبه ، سيضيع منك ما كان وما سيكون ، ابتعد وانتظر يوما ترى عمل الله فيه. ومضيت وأنا أشعر بالأسى والخزى معا.

يصرح القاص هنا دون مواربة برؤيته التشاؤمية حيث يتربص كل شخص ب لآخر، وقد وقف الجميع أمام فوهة القبر ، الذى يطل الموت منه منتظرا من تقذفه إليه أقداره أولا.

إن مشاعر الأسى والحزن تتمكن تماما من القاص ، خاصة فى قصته الثالثة ، وهى "البكاء بعيون مفتوحة" والتى تجيئ بكائية تنعى وفاة أعظم وأصدق معشوقة ، الأم ، مصدر الثقة والأمان الذين يفتقدهما الرواى الحاضر هنا. فلقد منحته أمه الحب والدفء والرقة ، وعوضته عن فقد أبيه بعد أن وهبت حياتها لخدمته. القصة مؤثرة ، تأخذ شكل المنولوج الداخلى الحزين ، وتبدو كما لو كانت اعترافا لصديق، إذ يقول محدثا شخصه فى سطور النهاية [ص]

> وقريرة العين هادئة كانت أبداً. ولما رحلت عرفت أنها تركتنى مطمئنة ، فقد انسحبت فى صمت

وهدوء إلى عالم الأبدية تنتظرنى فيه صديقى
لا تبتئس من أجلى ، خطوات خمس وأكمل الستين
،
والخطوات على نفس الدرب ونصل جمعيا إلى
هناك.

إن كانت هذه القصة بكائية فهى تأملية فى ذات الوقت ، اذ يتأمل الراوى عبر المنولوج لوعة الفراق ومرارة الوداع ، اللذين يتمخض عنهما الموت ، لا سيما وإن كان الذاهب هو الأم.

والقصة التالية وهى " زيارة عم عسل " تتمحور حول أب خطفه الموت منذ سنين ، وتتعرض المقبرة التى ترقد فيها رفاته لعمليات.حفر، إثر شق أحد الطرق خلالها. هنا يجئ حارس المقبرة والذى يمثل اسمه مفارقة درامية ، عم عسل ، ليطلب من الراوى الحاضر أن ينقل رفات أبيه إلى مقبرة أخرى حفاظاً على ذكراه ، لا سيما وأن جميع أقاربه قد حملوا رفات ذويهم. ورغم أن هذه المهمة غير العادية والشاقة فى ذات الوقت لا تأخذ سوى سويعات ، فإن مجرد ذكرها يضفى على القصة وعالم البطل جواً من الترقب. فمنذ اللحظة التى يحضر فيها العظام فى الصندوق ، ينتابه ، بل وينتاب أفراد أسرته شعور غريب بوجود والده بينهم. فكل فرد يحلم به، بدءاً به ومروراً بزوجته وانتهاء بابنه وابنته. كل واحد كاد أن يجزم أنه اشتم رائحته ولمس لحيته. تواجه الراوى هنا تحديات دنيوية كثيرة استدعاء المدير ، وفاة حماة أخته ، ضائقة الصديق المالية ، تأخر موعد المدرسة ، إنفجار ماسوة المياه ، ولكنه لا يأبه بها ، ويمضى فى طريقه ليوارى الرفات ، وهو لا يلوى على شئ، وقد غمره شعور بالراحة لأنه لم يقصر أبد فى حق والده [ص]

وامتدت يدى تفتح راديو السيارة لتنساب بعض من
آيات القرآن ، فابتسمت ولاح لى طيف
والدى يبتسم هو الآخر مشجعا ً، ربما
ليعيننى على بقية اليوم الصعب الذى ينتظرنى.

من الواضح هنا أن الصاوى يفلح فى أيجاد نوع من الألفة بين عالم الأحياء وعالم الأموات ، حيث يصير الموت غاية فى حد ذاتها للاتصال

بذلك العالم المجهول ، بعد أن كان وسيلة عقابية جبراً لمظاهر الشرور فى الدنيا. وهذه المعانى تؤكدها بشكل تدرجى- ثانية- عبر قصصه الخمس الأخيرة ، بداية من " الحاج منصور مقبول " ومروراً بكل من " حلاوة الروح " و" رائحة الشيكولاتة " وانتهاء بقصتى " ترانيم الطاهر الراضى " و " فى محلة الأطهار ".

تبدأ قصة " الحاج منصور مقبول " بشكل رمزى ساعة المغيب ، حيث يقول الراوى الحاضر ، الذى جعلنا نقترب منه كثيراً ، بل يقترب من صانعه- القاص ، ليأخذنا فيما يشبه الرحلة الصوفيـــة [ص]

> كنت جالساً فى شرفتى الزجاجية أنتظر مغيب الشمس لأصلى ، أرقب الشفق الأحمر يملأ الأفق ، والطيور عائدة لأعشاشها فى اتجاه الشرق بعد رحلة الرزق فى النهار. وسكنت الدنيا فى هدوء مطمئن ، ورنا البصر إلى بعيد ، ثم تاهت
> النظرة والفكرة والإحساس. فجأة تراءت أنوار لامعة غريبة تومض وتختفى فى سرعة فتداخلت المرئيات.

بعد الإيماء بانقضاء الأجل وحلول لحظة الرحيل يشرع الراوى فى وصف لحظات ماقبل انطلاق الروح من الجسد: [ص]

> إحساس جديد لم أشعره من قبل كان كدبيب النمل يسرى فى خلايا الجلد واللحم حتى النخاع ، لتتجمع وينسحب إلى أعلى .. بدا مؤلماً فى البداية
> ثم صعباً وعنيفاً عند البطن والصدر .. فتخشبت الساقان والقدمان والذراعان وتلاشت قدرة الحركة، وتجمع الشعور عند الحنجرة متضخماً
> يريد أن ينطلق خارجاً .. وكانت شهقة عظيمة.. واستلبت القدرة وتوهج الفكر والذاكرة والإدراك.

ثم يعبر الراوى عن رحلة الروح باستخدام النفق بإيحاءاته الرمزية ودلالاته الصوفية ، ليوجز المرور من خلال قناة تطهرية، تغتسل لديها الروح من ذنوب الجسد الدنيوية تارة بالإعتراف وتارة بالبكاء المرير طلباً للمغفرة والرحمة [ص]

نفق عميق اندفعت أهوى فيه بانسياب ...
عند مفرق النفق همد هبوطى واستقر.. وكان
الطريق أحمر اللـــون مسوداً بارداً. رأيت
لسانى وقد سقط طويلاً أزرق اللون مسوداً
سمعت صوتاً خرق أذنى من داخلى أن هذه كذباتك
..
فاعترفت وناديت صارخاً أن اغفر لى ليرحمنا
الله...
قلت أنا برحمتك يارب فانزاح عنى فكانت
تسبيحاتى
يا حنان يا منان حتى صرخت ، وسمعت الطير
والحيوان
يسبحون ويدعون للكل بالرحمة فاستبشرت.

إنها رحلة شفافية تطهرية تسمو فيها الروح، وهذا ما تؤكد عليها القصة التالية ذات العنوان الدلالى "حلاوة الروح".

تبدأ قصة "حلاوة الروح" بوصف يوم عاصف عصيب ، ربما كان يوم البعث فيحدثنا الراوى المتكلم قائلاً [ص]

هتف ملك أنه قد مات ميت ، فتخلصت
الروح من جسدى ، واجتازت كل الدنيا إلى الآخرة
،
هائمة وقد سكنها عمرى الفائت المحمل بأوزاره
وذكريات ما انقضى منه وسط الخلق.

ينتقل الراوى بروحه الهائمة إلى عالم الأموات ، حيث الانتظار مع الآخرين ، وقد تراءى له أن روحه قد سمت عالياً بعد أن فارقت الجسد

المتدنى، فراح يسترجع ما مضى من حياة الأبدان المكبلة بالذنوب باحثاً عن وسيلة اغتسال من العفن الدنيوى ، وهنا يظهر الشفيع الذى يصف قدومه بأسلوب غاية فى الصوفية والشفافية [ص]

رأينا .. أنوار أقمار الكون كلها تجمعت فى ليلة صيف حانية ، والنور آت برقة صوبنا يفلق الظلمة على جانبيه ، وكأنما أمطرت السماء عطراً وصفاء وطهراً فوقه، فإذا هو لامع نظيف براق فى بهاء وعظمة وجلال وخيلاء وروعة ، فكدنا نسجد جميعاً. صاح ملك " السجود لله وحده " فاستقمنا واقفين وعرفنا أنه الشفيع ونادينا كلنا نستنجد ، فرفع يده مبتسماً فى فرح وقال: طوبى للتائبين ، فصرنا ندعو

مسبحين وسرنا خلفه حتى يسقينا فلا نظمأ بعد ذلك أبداً فرضى.

فى القصة التالية وهى " رائحة الشيكولاتة " يجيئنا الصاوى بفكرة مدهشة ، حيث يعكس الرحلة السابقة ، فيستبدلها بأخرى من عالم الأموات إلى عالم الأحياء. فبعد عام كامل من وفاته وإيداعه القبر، يخرج عبر الفتحة التى تظهر فجأة ، بعد أن فوضه رفقاء القبر لزيارة الدنيا والعودة بتقرير عن أحوالها ، وعما إذا كانت تستحق الحنين اليها [ص]

الباقون وافقوا ورشحونى لأكون فى المقدمة فأخرج قبلهم لأستطلع الأمور وأعود فأحكى ، وساعتها سيقررون ما إذا كانوا سيخرجون أو يبقون. الزملاء تحمسوا وصوتوا على الرأى وانتخبونى لأدخل فى مغامرة أتوق اليها لم تكن فى الحسبان.

وبمجرد أن يسير بين الأحياء يتلقى الصدمة تلو الأخرى، سواء فى منزله أو مكان عمله السابق، فيقرر العودة ساخطاً لتغير الأحوال والطبائع ، ولاعناً رائحة الحياة التى حملتها اليه ورقة الشيكولاتة ، ولكن ليجد

مفاجأة فى انتظاره. فقد انسدت الفتحة التى خرج منها [ص]

دققت النظر على ضوء الفجر الجديد ، لا أصدق ما رأيت ، كانت فتحة السقف مسدودة. لقد أغلقوها بالأسمنت والطوب وقد تماسكت فأصبحت صلبة جامدة ولا سبيل ، وجلست إلى الجوار أفكر فى ورطتى الجديدة آملاً أن يموت أحدهم فتتاح لى الفرصة لأكون.

نفس الرحلة تقريباً، ولكن مع اختلاف السياق، يقوم بها الراوى فى القصة قبل الأخيرة ، وأعنى بها قصة " ترانيم الطاهر الراضى "

هنا الراوى يخبره الخبيث أن أجله يأتى عند الأربعين ، فيزور مستودع السنين ، لينهل منه عشرين عاماً من عمر جمل ، وعشر سنوات من كلب وعشراً أخرى من قرد ليعود ويستكمل حياته ، ولكن هيهات ، فلقد تغيرت الأمور ، ولا يستطيع حيالها شيئاً ، بل لم يعد أحد يأبه بغيابه أو حضوره ، مما يصيبه بالحسرة والندم: [ص].

كانوا جميعاً واقفين يراقبون ما أفعل ، يتفرجون على فى ألمى ومصيبتى ويسمعون أنينى غير عابئين. خرجت كلماتى متكسرة الحروف تشتم وتلعن الأيام والزمن والمرض.

لا تنفع المرتحل هنا سنوات الصبر التى استعارها من الجمل ، فيروح يلهث كالكلب وقد صدمته عبثية الدنيا بتراقصها أمام عينيه كالقرد ، ولكن ثمة رذاذاً معطراً يتساقط على وجهه ، وثمة يداً حانية تمسك بكفه وتربت عليه، فيفيق من غفوته ليدرك وندرك نحن معه أنه إنما قام بتلك الرحلة وهو تحت تأثير مخدر، ربما بعد أجراء عملية جراحية. وبمجرد أن يدرك الأشياء من حوله، يطلب ماء كى يتطهر به [ص]

شعرت بيد تمسح جبينى. فرفعت عينى فوجدت الطبيب يبتسم هو الآخر. تلفت حولى فشاهدتهم واجمين ثم ابتسموا

صحت فيهم احضروا لى ماء أريد
أن أتطهر.

لعل الرغبة فى التطهر هنا تقودنا، بشكل تلقائى منطقى فى آن واحد ، إلى القصة الأخيرة فى المجموعة والتى يعنونها الصاوى عن عمد " فى محلة الأطهار " حيث أراد أن ينتهى ببطله الراوى الحاضر وبقارئه فى ذلك الموقع الذى يرى فيه المذنب آثامه وذنوبه. ويتوق إلى الخلاص منها ، أى العودة إلى الرحلة السابقة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ، وإن كان الموت هنا مجازياً بمعنى أن بطل القصة تسيطر عليه فكرة أن يرى نفسه وهو نائم ، أى نصف ميت ، وما يمكن أن يصدر عنه حين ذلك. وتتطور الفكرة بل تتعقد الرحلة ليتراءى له أنه فى يوم الحساب [ص]

تخيلت أنى فى مصنع كبير ، إلا أنه لم يكن هناك غير صوتى يسأل أين نحن وماذا نفعل هنا ؟ جاءت الإجابة مكتوبة فوق الشاشة إنك الآن فى موقف الحساب وستتسلم بيان أعمالك الرديئة بعد لحظة فارتعبت.

وتتراءى له ذنوبه وآثامه فكاد أن يموت فعلياً [ص]

رأيت كل الناس الذين تعاملت معهم وكيف أنى ظلمت كلاً منهم ولو بالقليل. وظلت الذنوب والأثام والشرور تتلاحق أمام عينى وفى ذاكرتى حتى كدت أموت.

هنا يدرك الراوى الحالم اليقظان أنه ليس أمامه سوى التوبة [ص]

كلمات أخرى كتبت فوق الشاشة كسابقتها.. بيان الأعمال المقبولة واسمى فى المنتصف.. وفى النهاية كتبت ليس أماك إلا التوبة ، فغمرنى الشعور بأنى كالكلب المنبوذ فى محلة الأطهار.

إن هذه ذروة الحدث الدرامى الذى تتمخض عنه مجموعة القصص ، الشعور العميق بالإثم والإدراك الطاغ بضرورة التطهر طالما أن لدينا

الفرصة ، قبل الانتقال إلى ما لا رجعة منه. قد تكون هذه نظرة تشاؤمية شيئاً ما من جانب الصاوى ، ولكنها واقعية تماماً ، وواضح أنها تلح عليه ، فراح يغلفها بتلك الشفافية البديعة التى ذكرتها آنفاً. إن الصاوى يستخدم شبح الموت الذى يهيمن على مجموعة القصص لا كغاية فى حد ذاتها ولكن كوسيلة تطهير ، وهذا ما تتمخض عنه تجربته الإبداعية الفريدة.

د/جمـــال عبد الناصــر
(أستاذ الأدب الإنجليزى)
جامعة القاهرة

المحتويات

* * *

للكاتب

سور القاهرة الوردى	مجموعة قصصية
هيئة الكتاب	
رقصـــــــة الجنرال	مجموعة قصصية
مدبولى الصغير	
أحلـــــى ١٠ قصص	مجموعة قصصية – مشتركة
كتاب اليوم	
اللعب بالديناميـــــت	مجموعة قصصية – مشتركة
كتاب اليوم	
اجنحـــــــــة البوح	مجموعة قصصية – مشتركة
كتاب الجيل الجديد	
٥٠ قصة قصيرة	مجموعة قصصية – مشتركة
دار التحرير	
حوار مع جِنيــــــــــَّة	مجموعة قصصية
الكتاب الفضى	
الرقص على الألغام	مجموعة قصصية
كتاب اليوم	
كنوز شمائل	مجموعة قصصية
اتحاد كتاب مصر	

تحت الطبع

__عندما تحلم راويـــــة مجموعة قصصية

ليالى السمر فى دوار الصاوى مجموعة قصصية

* * *



صاح ملك فى اندهاش وسرور؛
فانتبهنا جميعًا، رأينا كما أنوار
أقمار الكون كلها تجمعت فى
ليلة صيف حانية، والنور آت
برقة صوبنا يفلق الظلمة على
جانبيه، وكأنما أمطرت السماء
عطرًا وصفاء وطهرًا فوقه.
فإذا هو لامع نظيف براق فى
بهاء وعظمة وجلال وخيلاء
وروعة. فكدنا نسجد جميعًا..
صاح ملك: السجود لله وحده
فاستقمنا واقفين...

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف للفنان: محمود الهندى